

ادموه صبرى رزوق

المأثور العجوز وقصص خري

مع مقدمة

للكتور صلاح الدين الناهى

مطبعة دارالمعرفة - بغداد

١٩٥٣

www.alkottob.com

ادمنه صبرى رزوق

المأمور العجوز وقصص خسرى

مع مقدمة

للككتور صلاح الدين الناهى

مطبعة دارالمعرفة - بغداد

١٩٥٣

www.alkottob.com

المقدمة

بقلم الدكتور صلاح الدين الناهي

تربطني بكاتب هذه المجموعة صلة قديمة تمتد الى عهد قديم كان فيه طالباً في كلية التجارة والاقتصاد يوم كنت وكيلاً لمادتها وكان شعوري يومئذ ان طلابي في كلية التجارة أدنى إلى الشعب بكل شيء : بيؤسه وكفاحه وآماله المحدودة الاق .

ولقد تذكرت هذا الشعور الذي كان يخامرني يوم طلب الي السيد ادمون أن أقدم لمجموعته هذه بمقدمة فاذا بي اتلمس في كل سطر من سطورها صدق ذلك الشعور فالكاتب من صميم الشعب اقاصيله تسرد انماطاً مختلفة من الحياة الشعبية بما تحفل به من الهموم والشجار ومن خشونة وشظف وهرج ومرج وسذاجة في الشاعر ، فانت اذا قرأت له قصة شجار عجبت لتلك الصداقة الساذجة التي تنعقد بسرعة خاطفة بين زوجة سعيد وزوجة الاسكافي . ثم لا تلبث ان تنتهي بذلك الشجار العنيف بين المرأتين فاذا كل منهما تتلو على الأخرى محيطاً من الالفاظ البذيئة الفاحشة .

ولا تلبث ان تتساءل حين تنتهي من قراءة هذه القصة هل مارس كاتبها التعليم فاجيبك على ذلك بما اجابني : نعم لقد كنت معلماً ولولا

ليسانس التجارة والاقتصاد لما استطاع ان يجد له مفرأ من حياة التعليم
ومستقراً في المصرف الصناعي .

كاتب هذه المجموعة اذن ليس من كتاب البروج العاجية بل هو من
كتاب هذه المدرسة الواقعية التي ما برحت منذ عهد قريب تشق طريقها
في الأدب العربي وهو بعد ذلك قد خبر هذه الحياة التي يصفها لك
ويرويها ويحكي ما يقع فيها من الصغائر والمهازل والنقائض .

واذا حدثك فأنما يحدثك بلغة الحياة نفسها . فهو لا يصطنع شيئاً من
الأساليب البلاغية والزخارف اللفظية في حديثه ولا يتكلف تشبيهاً رومانطيقياً
ولا يشيع في نفس القاريء جواً خيالياً ولا يوقد ناراً ولا بنحوراً

وقد لا تتفق معه على هذا الاسلوب الجاف والسرمد الواقعي وعلى
غلوه في وصف كل حركة ولو كانت نايبة تشمئز منها النفس وتعافها
ولكنك لا تنكر عليه انه يقسرك على متابعتة وقرائته ويشعرك بقدرته
على تصوير حياة الناس ويضطرك الى الهبوط اعلى اعماق اخايد الحياة
الشعبية ان صح ان في تلك الأعماق حياة او انها اكثر من مجرد حركة
دائبة لا لون لها ولا طعم ولا كبير رجاء .

ولا اطيل عليك الحديث فان من الخير لك ان تنصرف الى قراءة
ما اقدمه اليك بنفسك وقد لا تتفق معي او معه في الرأي والتقدير
ولكنك لن تنكر عليه واقعيته ودقته في الملاحظة والسرمد والحبك
والرغبة الصادقة في التصوير وان عبت عليه امله قواعد النحو .

شجار



كم كان المعلم سعيد يشعر بالتعب والسأم . منذ الصباح الباكر أطل عليه رأس صاحب المنزل ، وقف على عتبة الباب مزججراً غاضباً . (ماهذا التسويف ياسعيد هل انتظر سنة كاملة ادفع ايجارك في الحال والا القيت أثاثك في الوحل) واسمعه كلاماً خشناً آخر ، مما جعل سعيداً ينجبل ويندى جيئنه بالعرق . فوقف بعض المتسكعين بأيديهم (علاقات) مليئة بالخضار واللحم والخبز ينصتون ويقلبون شفاههم وجاره السيد بدر وقف كذلك دون ان يتدخل لمعونه . فكم اغاظه هذا السلوك . حدثت معركة عنيفة بين اطفاله واطفال بدر ثم امتد لهيها الى زوجته وزوجة جاره فتراشقت المرأتان بالتهم الشنيعة وانتهى الامر الى خصومة وجفوة بين الرجلين . حتى امارات التشفي كانت مر تسمية على وجه جاره كأنه يقول اسعيد (ها اخرج من المحلة لانريد ان نرى وجهك بعد اليوم) .

اضطر ان يبحث عن دار اخرى . طال مطافه في عدة زقة محترمة نظيفة فلم يوفق فيها الى دار كلها مرتفعة اليجار غالية الكلفة فانحدر الى ازقة اقل مرتبة وتساهل في امر الاوحال والقدارة وضجيج الاطفال فاستأجر داراً صغيرة قديمة زرية المنظر ، وانتقل اليها باولاده وزوجته واثاثه القليل التافه .

في صباح اليوم التالي خرج من داره الجديدة ووجد اكوام الوحل ملقاة عند الباب والروائح النتنة تزكم الانوف ومياهاً قدرة سوداء تنحدر في شقوق الارض وحفرها ونساء حافيات باقدام كبيرة موحلة يلقيان فضلات الطعام في زوايا الطريق . فاشمأز وسكت ومضى في سبيله . وعند الظهر عاد من مدرسته فاستقبلته زوجته بوجه باسم فرح قالت تبشره . الاتدري ؟ زارتنا جارتنا في الصباح كم هي امرأة طيبة ساكنة . زوجها اسكافي ولها تسعة اطفال شكت لي حالها المؤلم فاشفت عليها .

اشاح سعيد بوجه عنها وقال لها باختصار : احذري من المشاجرات لاتدعي ابنائنا يلعبون معهم . قالت محتجة لا ياسعيد لقد نآ لغوا منذ اللحظة الاولى يلعبون ويمرحون سوية

هز سعيد رأسه متوعداً

سنرى ياعزيزتي سنرى اصبري لي بعد بضعة ايام .

وحدث ما توقعه سعيد عاد من مدرسته مساء احد الايام فوجد زوجته

عند الباب في حالة يرثى لها من الهياج ، وجهها مخدش وشعر رأسها منفوش وصوتها مختنق . صاح بها ماذا حدث يا فهيمة ؟ وفي داخل المنزل كان ابنه حسن يبكي بكاءً مرأً ووجهه ملطخ بالطين مع دمعه الغزير المنهمر .
جن جنون سعيد واهتاجت اعصابه . وزعق في وجه زوجته ماذا حدث حدثيني ؟ ولولت زوجته .

- هذا (السرسري) ابن عبدالله الاسكافي جارنا . ويل له من ابن قدر تخاصم مع ابنتنا حسن وسحق ساقه بالمصا . انظر ماذا فعل به !
ولم يكتم بهذا . وثب على وشد شعري وخدش وجهي باظافره .
سأبلغ الخبر للشرطة . يجب ان اسجنه يجب ان اسجنه هذه وقاحة هذا تمدي . اشتدت ولولتها وتجمع اناس غرباء ذوو هيئات قدرة ضايقوا سعيداً بمنظرهم وتدخلهم . وهمت زوجته ان تأخذ عباةها وتسرع الى الشرطة فامسك بها المعلم سعيد وهدأها بلطف وأخذ عباةها وقادها الى داخل المنزل واغلق الباب .

الم اقل منذ البدء - قال سعيد معاتباً - ان الاختلاط مع اناس شرسين فيه مضايقة واذا لنا انظري ما حدث ؟ هذه تربية اولادهم . بيوت ضيقة كلوجار الفأر مكتظة بعدد وفير من الاطفال المشردين . اين يذهبون؟ لاحديقة اطفال ولا ملاعب ولا منتزهات . . . وفوق هذا اسراف في النسل . لاهم الا انجاب مخاليق وقحة مجرمة عابثة . مصيرهم السجن

والاعدام والتفسخ . عليك يا فهمة يا زوجتي يا شريكة حياتي منع اطفالنا من
الاختلاط باحد لا استطيع ان اتشاجر مع الناس . . يلعبون في البيت فقط
- كيف يمكن هذا ؟ - صاحت زوجته - الدار صغيرة ضيقة لا تتسع
لهم ، لنا خمسة اطفال يتصايحون ويتشاجرون ويموون . انا مشغولة بطهي
الطعام وغسل الملابس

- ليس لنا حل غير هذا والاهجموا على ذات يوم وبصقوا في وجهي
وطرحوني في الطين . غضبت زوجته وصاحت في صوت مرعب

- يبصقون في وجهك ؟ انت مسكين لهم ، من هم ؟ ابصق انت في
وجههم مرغهم في الطين احترقهم . . . لا تكن هكذا لينا ضعيفاً . . . انا
اعرف كيف اعاملهم واروضهم . . . دع الامر لي

وبعد بضعة ايام وقد مرت تلك الحادثة بسلام دون ان تلحق
بشخص سعيد اهانة . دخل الدار مساءً فوجد زوجة جاره نورية تتحدث
مع زوجته في (المجاز) حديثاً ودياً . امامها اكوام الشاي ترتشفانها
وعلة السكاثر مطروحة بينهما ، هذه العلة التي اشتراها سعيد قبل يومين
للمناسبات الطيبة . وصحن شاي مبلى باعقاب السكاير والرماد . حنق على
زوجته حتى انه لم يسلم ولم يحيي احداً . فانت اليه زوجته بعد انصراف
جارتها .

- لو تعلم سعيد اي امرأة طيبة هي ، بائسة فقيرة زوجها الاسكافي

يسومها العذاب الوانا حدثني عن حالها . لها تسعة اطفال كلهم بلا مدارس
اغتاظ سعيد وسألها بحدة

هل نسيت تلك المشجرة المخجلة من شد شعرك وخذش وجهك ؟
- اواه ياسعيد لو تدري ؟ اعتذرت لى وقبلتني وضربت ابنتها ضرباً
مبرحاً بالقباب حتى كادت فقرات ظهره تنخلع .

وفي صباح اليوم التالي مر بالاسكافي . وجد دكانه صغيراً قائماً في
زاوية حادة من زوايا الطريق لم يفتن الى وجوده قبل هذه المرة . تأمله
سعيد فوجده عجوزاً مقوس الظهر تتدلى من وجهه لحية غبراء . محنياً على
جلدة سميكة يقطعها بسكينه الحادة وحوله احذية قديمة اخرى واكوام من
الجلود المختلفة وسطل ماء قدر وفوق رأسه خيوط المناكب . وطفلة صغيرة
تساومه على اصلاح قباب امها . ولما وقعت انظار الاسكافي على جاره
هتف مرحباً .

- اهلا ياسيد سعيد اتنا جيران تشرفنا بكم وازاح قطعة الجلد عن
سكينته وابتسم ابتسامة مقيبة بهينه الصغيرتين حتى خيل اليه ان وجه
الاسكافي كوجه ابليس خرج له من كهف مرعب ، استورد هذا . حدثني
زوجتي عنك فاشتقت للتعرف عليك . . تفضل تفضل سادعو لك بقدر
الشاى . اعتذر سعيد وصاح متضايقاً كلالا لا اريد انا ذاهب .. لدى عمل
شكراً في مناسبة اخرى . اذن تفضل في المساء في مقهى رشيد نحن هناك

تتسامر في الليل .

- شكراً شكراً .

وتخلص سعيد من لجأته .

* * *

مضى اسبوعان في هدنة مريحة . الا ان سعيداً لاحظ ان زوجته لا تخرج لزيارة جاريتها كما ان الجارة انقطعت عن زيارتها . وكلما مر هو بالاسكافي في الصباح يحببه كعادته ، الا ان تحيته كانت ترد ببرود دون ان يعقبها ترحيب ، فلم يعر لهذا اهتماماً .

وذات ليلة حدث امر فظيع ، عاد سعيد من مقهاه في الشارع العام فتنهض الى سمعه وهو بعد لم يصل الى حارته ، اصوات منكورة وشتائم وسباب وهرج لا مثيل له ، ففزع وارتقب وانصت ملياً كالفأر الذي سمع قرعة طبل مفاجئة اسرع الخطى وهو في حالة اضطراب وهلع . ماذا وجد؟ يا للمشهد الفظيع . وجد زوجته بباب المنزل تشتم وتسب وتطلق من فيها عبارات الفحش كالمدير الصاحب . وزوجة جاره في باب منزلها ممعنة في سرد افظع مثالب المرأة تصرخ في هياج والزبد يتدفق من شفيتها . (انت يا فاحشة اعرف انا من هو والد اطفالك يا منحة سافلة داعرة) . وزوجته تنفجر بصرخات مدوية . (انت ابحي عن عشاقك عن والد اطفالك هذا زوجك العجوز العاجز هذا نصف انسان هذا الميت) وقد

اجتمع حولها خلق كثير قدموا من اطراف المحلة البعيدة يصفرون
ويعلقون ويسكون بالمتشاجرتين لثلاثهمجم احدهما على الأخرى وتقرسها.
رأى بعض الرجال الغرباء قد امسكوا بزوجه يدفعونها ويدخلونها المنزل
وهي تدفهم وتصدم وتصيح :

اتركوني انتقم منها هذه الفاحشة الزانية هذه السفاحة الآتمة ، وتلك
الاخرى تصيح من الجانب الآخر . (يا عاشقة الصبيان يا لعينة فاجرة)
واشتبك اطفاله مع اطفال الجارة فى معركة محندمة مريوة تطايرت فى
الفضاء قطع الحجر والصخر وسالت الدماء و شتد لفظ الناس ذهل سعيد
لهذا المنظر وجمد فى مكانه كالمصوق لا يدري بأية خطوة يبدأ .

الصرخات والصيحات والاستغاثات تأتي الى اذنيه من كل جانب
فاحتقن الدم فى وجهه وتلجلج لسانه . وجد طفله الصغير فوزى الذى يحبه
كثيراً مطروحاً على ظهره فوق كومة من الطين القندر يصيح ويستغيث
وابن جاره قد قعد فوقه كالغول يلطمه ويدوسه .

انتابته نوبة من تلك النوبات الحادة التي تعتريه فى الصف عندما يقرأ
للصبيان درسهم فيشير احدهم كأن يلقي عليه حصاة صغيرة او يخرج له
لسانه او يموء كالقطعة من تحت الرحلة او يقرأ درسه بنبرة تثير ضحك
زملائه فيشعر سعيد بجراحة تلك الساعة ان الزمام يوشك ان يفلت من يده .
فينقلب كل شيء فى عينيه اسود قائماً . نسي نفسه ولم يعد ذلك الرجل

الصامت المهدب . صرخ صرخة مدوية وانفض كالنسر الجارح انشب
اظافر يديه فى ظهر ابن الجارة ومزق ثوبه ورفع بين يديه عالياً كلعبة
صغيرة وقذف به بكل قوته على الارض . صكت ولولة النساء سمعه ولم
يعد يرى شيئاً تراهى له وجه الاسكافى وقد احتقن بالدم عيناه
الصغيرتان تشعان ناراً . موقدة . خلع حذائه الثقيل ، احس سعيد بضربة
قوية تهوى على رأسه ثم ضربات اخرى . وسمع صوتاً يصيح به . (هذا
معلم هذا مربي اطفال هذا شرير تعس) غاب عن وعيه فتبرع
المتزوجون بحمل جسده النحيل الى داخل المنزل . وضعوه فوق (كنية)
كبيرة لا حراك فيه .

مضت عليه عدة ساعات قبل ان يستفيق فذهبت زوجته الى مركز
البوليس وسجلت دعواها على الاسكافى وزوجته وابنه . وقامت زوجة
الاسكافى بدورها ايضاً فسجلت شكايتهما بدعوى متقابلة . افادت ان
جارتها وزوجها اعتديا عليها وعلى ابنها فخلعا كتفه وجرحاه . وباتت المحلة
تلك الليلة ولا حديث لها الا عن مشاجرة اليوم . نقل السيد سعيد
الى المستشفى وحصل على التداوى واخذ ابن الاسكافى الى المستشفى
ايضاً للمعالجة وعاد الاثنان معصوبين بالضامات ، تفوح منهما رائحة اليود
الحادة . فخرجت نساء المحلة واولادهن لاستقبال الجريحين كأنهما
عائدان من الجبهة .

تمدد سعيد على (الكنبه) يتأوه ويرسل الزفرات ويتحسس موضع الجروح في رأسه . فعدت زوجته الى جانبه تواسيه وتعاتبه .
 - سأزج بهم في السجن جميعاً ... لا اقل من خمس سنوات اشغال شاقة حتى الاسكافي هذا المجرم الشرير سأحطم رأسه . . . اليس هناك حكومة . . . ارواح الناس مهدورة رخيصة . هناك قانون صارم يعاقب القتلة الأشقياء .

زجر سعيد في وجه زوجته :

- اصمتي ايها الحفاء هذا ذنبك هذا جهلك قلت لك لا تختلطي بالجيران هؤلاء اوباش اذنياء لصوص مجرمين .. انظري هذه النتيجة .. متى سأشفي ؟ كيف سأخرج الى الطريق بهذه الرأس المعصوبة وبيروني الناس وبشمتوا بي

- هو ذنبي ام ذنبك ؟ - اجابت فيهمه - ماذا جرى لك لم افهم ؟ . هل جنت ؟ كيف تهجم على ابن الاسكافي هذه المهجمة المجنونة . . . كدت تقتله . كدت تفتك به ياسعيد . . . خاص قلبي بين ضلوعي من الفزع . . انا مريضة اكثر منك .. لم تعد لي قوة ، انحلت اعصابي . وراحت تتأوه وتتسكى . لم يجب سعيد تنهد وتأفف وزفر عدة زفرات وتقلب على الكنبه وهو يردد في صوت خافت لا يسمعه احد :

- يا للجاهلة كأنها لا تدري انا معلم ابتدائية معلم صبيان شياطين . مصاب باختلال في الأعصاب .. لا تدري ما الذي حدث ذات يوم في

المدرسة يا لهول ما حدث . انزلت قبضة يدي الثقيلة على رأس تلميذ
وقح .. يا لله تراءت لي المشنقة ذلك اليوم . قلت انتهت حياتك يا معلم
سعيد . سقط التلميذ مغشياً عليه كأنه ميت . شحب وجهه وجمدت اطرافه
وضعف تنفسه اواه كادت اموت من الفزع . لولا ذلك المدير الشهم
الذي انفذ الموقف بكياسته وحكمته ... هداً اعصابي وقوى عزيمتي
واسكن روعي . كنت في امس الحاجة الى شيء من رباطة الجأش الى
انسان يشجعني قليلاً ، يعيد لي صوابي . عالجوا التلميذ بالذهبات وبسطول
الماء حتى افاق . ولكن بعد ان تحطمت بالمره .

الى اليوم لا ينسى سعيد تلك الحادثة المروعة . ان المدير استغل ذلك
الظرف وفرض عبودية على سعيد صار يكلفه بهام اضافية ويتعبه بالواجبات
وهو لا يستطيع ان يتدمر ويتبرم خشية ان يفضح المدير تلك الحادثة .
ويذيعها بين الناس .

* * *

تحسنت صحة سعيد ، فرجا زوجته ان تسقط دعواها في الشرطة
بعد ان علم ان دعوى جاره قد اسقطت كذلك . اصدر اوامره المشددة
الى اولاده وزوجته بالاعتصام في المنزل مهما كانت الأحوال . استعمل
الصرامة والقسوة . يأتي من عمله مساء فلا يخرج مرة اخرى يجلس الى
اطفاله يداعبهم ويلاعبهم ويطلع معهم دروسهم وفي الصباح يذهب الى
مدرسته . حريص جداً ان يتحاشى دكان الاسكافي ولا يمر به ولا تقع

عيناه على وجه البغيض . اكتشف لنفسه طريقاً آخر فيه منعطفات طويلة
تصل به الى الشارع العام .

انتهت السنة الدراسية وتمتع سعيد بعطلة الصيف الطويلة . الا ان
منهاجه الصارم لم يتبدل مثابراً عليه لايسمح لأحد بخرقه وافساده . حتى
الوقوف بباب المنزل محظور على افراد عائلته يعود الى بيته مع الغروب
فيماً بوجوده الفراغ الصغير الذي تحسه زوجته واولاده .

كانت امسية حارة خانقة والبيت صغير مكتظ فتملئ زوجته
ويتضايق الأطفال الا انه ظل صارماً لا يلين كقطبان السفينة
يداعبهم ويمازحهم ان شعروا برغبة الى المداعبة والزاح وينهرهم
ويقسو عليهم حينما لا يكون سبيل الا النهر والقسوة ويدرسهم ويرشدهم
ان وجدهم في حاجة الى الدرس والارشاد . حتى على السطوح وضع
سعيد ستارة سميكة تفصل عنه جاره . في بعض الليالي سمع سعيد سعال
الأسكافي وتأوهات فلم يرق له قلبه بل تبسم شامتاً (ليته يموت هذا
الشرير ... كاد يقتلني كاد يسفك دمي) وانزوى الى جوار زوجته في
السرير الكبير دون ان تخرج من فمه نامة او تأوه او حسرة ، يتطلع
الى الأسرة الصغيرة التي ينام عليها الأولاد و احياناً يتسلل من الفراش
ويعشي على اطراف قدميه لا لشيء سوى ان صدر ابنه غير مغطى او
رجل ابنته وداد معرضة لتيار الهواء او الابن الآخر قد زحف قيصه
وتعرضت بطنه للبرد يصبح بهم مخافتاً (ما هذا لا تلاحظوا انفسكم ؟

تدثروا تدثروا جيداً قد يبرد الهواء بعد منتصف الليل وتعرضون) ويعود الى سريره مطمئناً .

زوجته فهيمة تغط في النوم تضطجع على ظهرها وتفتح ذراعها ويعلو على صدرها ثدياها الكبيران كأنهما نفاخات اطفال . يتقلب في الفراش عدة مرات ويخيل اليه في بعض الأحيان ان انساناً ما يعبث بالاثاث في صحن الدار . او حركة غير اعتيادية تأتي الى اذنه من بعض الغرف . واحياناً يسمع باب غرفته يغلق بهدوء وكأن انساناً يمزق اوراقه ويتلف دقاته او يختلس النظر الى الدرجات السرية التي يضعها للتلاميذ . فيشتد قلقه وتستثار هواجسه فيتسلل من فراشه مرة أخرى ويمشي في احتراس القط الذكي يطل من (الحجر) وينصت باهتمام فلا يجد الاظلمة مطبقة وسكوناً موحشاً . يفكر (لعل هذا الاسكافي يلعب معه لعبة خسية .. لا لاها هو الاسكافي يرسل سعاله الجاف من فوق سريره الخشبي يفكر ملياً قد تكون قطة جائعة تطارد فأراً . ثم ينصت الى احاديث جاره السمجة . لا حديث له الا عن الأحذية . حتى مع زوجته يتحدث عن مزاياء الجلود الفرنسية .

* * *

كان ذلك اليوم يوم الراتب من الصباح الباكر عقد مؤتمره الشهري مع زوجته تحدثا عن الرز والسمن والخنطة ثم عرجا على حاجيات الأطفال الجلابيب والأحذية والقمصان الداخلية . وخصص قدراً من ميزانيتها

لشراء دواء لابنه فوزي . كان يبدو هزيلًا وفي مرفقيه قروح كريهة . ثم اتت الزوجة الى استعراض حالها . يعوزها قيص نوم وبدلة خفيفة للصيف ثم اشياء اخرى للزينة لا تتحدث عنها فهيمة بالتفصيل انما سعيد يفهمها فيديس في يديها دينار . ويقول في نفسه . (هذه ضريبة الجمال ... تجملني جيداً يا امرأة) احضر دقترأ صغيراً وسجل فيه قراراته التي اتخذها لهذا الشهر . راجعها بدقة ودرس اقيامها وقارن بينها وبين الشهر الماضي . وكون في ذهنه تقريراً صغيراً عن مجرى حياته المعاشية انه يجد في هذه المباحث لذة كبرى تسبغ عليه هيئة المتعلم المتفهم للاقتصاد .

قبض راتبه ذلك النهار واتجه نحو الشورجة . استأجر حملاً قوياً معه (زنبيل) كبير وخاض الممعة مع البقالين والطارين اشترى البصل والملح والرز والسمن والبطاطة والصابون والمعروني . وكلا وقع نظره على شيء هتف (هذا زين يفيدنا في المنزل حتى لا نخرج ام فوزي وتصطدم مع الجيران) حتى الفلفل والقرنفل والافحوان وبزر الكتان وحب البخور دسها جميعاً في (الزنبيل) هيا ايها الحمال - صاح به - اتبعني فشي هذا خلفه محدودب الظهر تحت حمله الثقيل . وكاد يصل الى دكان الأسكافي الا انه انقبه في اللحظة الأخيرة فاستاء وتردد ثم نكص على عقبيه (لا لا اريد ان ارى وجهه ! من هنا من هنا ايها الحمال) .

قام باستدارات كبيرة حتى وصل منزله . فدهش الحمال وقال له (لم كل هذه المتاعب ؟ كان بإمكاننا ان نصل سريعاً ... الطريق خطوتين ..

انظر كم قطعنا ؟ تتم سعيد خجلا :

- حقا انت لا تدري .. هناك مسألة .. لا اريد ان امر بهذا الزقاق .. اتعبتك انا آسف جداً .. ومع هذا سأدفع لك .

شرح سعيد مصراعي الباب فاندفع الحمال الى داخل المنزل . وبرزت زوجته من المطبخ . يدها ملوثة بالسمن وفوق انفها لطحخة سخام كبيرة . ابصرت بالحمال فوجدته رجلا يافعا قوي العضل ، فهجمت على عبايتها تريد ان تلتف بها . فصاح بها سعيد : (من الحمال ايضا ... تطوري كفى .. في اوربا النساء بالمياوهات) . فنجلت فهيمه وقالت في صوت حاد :
- الا ترى ثوبي ؟ انظر فيه ثقوب . لاحظ سعيد ثقباً كبيراً في ظهرها يطل منه لحمها (ما هذه الحرق البالية ؟ اين اثوابك الجديدة ... دائماً قدرة تسمّاز منك النفس) فطأطأت رأسها وزاد اضطرابها وتمتمت في صوت خافت :

- ماذا البس في المطبخ ؟ اتلف ثيابي الجديدة

- في المطبخ في المطبخ لا ادري ما هو هذا المطبخ هل هو مدبغة جلود او مصنع صابون ؟ المطبخ مكان الطعام مكان نظيف فيه رونق وجمال وحشمة يهمني نظافة المطبخ اكثر من نظافة الصالون .
هيا فرغ الأشياء - صاح بالحمال - وتولى سعيد عملية افراغ واملاء وتنظيف خزانة الطعام والرفوف والدواليب . وعات زوجته الى المطبخ تهيمى الطعام فلم يسأل عنها ولم يحتج اليها ، أتى بجرائد قديمة وضعها على رفوف

الحزانة ونظف الزجاجات وملاًها بالملح والاشياء الأخرى وسكب
السمن في القارورة بعد ان فحص قعرها خشية ان يكون فيها فأر ، كل
شيء على ما يرام ، تمددت اعصابه وهدأت وأحس بالراحة التامة التي
لا يستطيع انسان على سطح الأرض ان ينال منها شيئاً .

كان ذلك اليوم من الأيام البهيجة في حياة سعيد ، مون بيته بالطعام
ووضع كل شيء في مكانه وانتقد زوجته كزوج غيور شهيم قوي على
لباسها المهلهل القدر وبينها اهمية المطبخ واعتناء الأوربيين به ، فاعترفت
هي بهذا التقصير ووعدت ان تلبس ملابس نظيفة جيدة بالمطبخ اشترى
لابنه دواءً مقويًا ودهناً للقروح ، وفي المساء خرجت فيهمه وعادت بعد
ساعة معها علبة (بودرة) وصبغ شفاه و كريم للوجه وعلبة اخرى لم يعرف
احد محتوياتها ، ابتسم سعيد في سره (هذه ضريبة الجمال قد دفعت
بالتمام) .

خطر له ان يخرج مساء هذا اليوم للتنزه ، ارتدى ملابسه النظيفة
وعقد على رقبتة ربطة كبيرة ، سلك المنعطفات الطويلة رغبة منه في تجنب
رؤية الأسكافي ، وجد نفسه في قلب شارع غازي . قطع نحو مائتي
خطوة ثم اجتاز شارع فيصل وواجه الجسر المتين ، منذ مدة طويلة لم يعبر
هذا الجسر ، لا بد ان النسيم سيكون منعشاً مغرياً هناك .

شدة الجرد دفعت جمهوراً كبيراً من الناس الى الانطلاق فوق الجسر ،
رأى النساء السافرات في فساتين ملونة بلون الفراشات يتخابلن في

رشاقة وعظمة معظمهن عاريات الأذرع تبدو اكتافهن الطرية البضة ،
كأن الدنيا تبسّم في وجوههن ، كل شيء كان ينظره سعيد بعين راضية
مبهجة .

قطع مسافة طويلة اخرى في شارع الصالحية فلذ له ان يقعد هنيئة
على احد مقاعد المقهى ، شعر انه يتنفس بحرية و كأنه قد سافر الى بلد
جديد للتفرج والاصطياف كل شيء يثيره وكل شيء يدرسه باهتمام .
قد صفا ذهنه وأنجاب عن صدره عبء ثقيل ، خيمت الظلمة واضئت
الأنوار واشتد انطلاق السيارات وتجاوبت الأغاني من كل مكان
انصت الى الراديو وسمع نشرة الاخبار السياسية تحلوه في ايام الصفاء
ولذا فهو في كل شهر او شهرين يسمع نشرة اخبار واحدة . بعض البلاد
النائية الصغيرة قد غابت عن ذهنه الراديو يذكره بها فيدهش كل
يتساءل (جاميكا وهايني لازلتا موجودتين) وبلاد اخرى ينسى موقعها
على الخارطة فيجهد نفسه لاستدكارها فلا يفلح فيهنز كنفه بغير مبالاة
(العالم كبير ماذا افعل ؟ احفظ كل شيء) .

نحو الساعة التاسعة غادر المقهى عائداً الى المنزل ، لاحظ الملاهي
قد ابتدأت عملها اجواق شعبية شرقية تعزف ورنين السكّان بأن على
الوتر الرفيع وضربات العود تهدر عالية ، وصوت مغنية تعني بصوت
شعبي اغنية قديمة - ربيتك صغيرون حسن ليش انكرتني -
عادت ذا كرتة القهقري الى الأيام الخوالي يوم كان يرتاد الملاهي

ويجلس بالصفوف الأمامية ويعب كؤوس الخمر عباً ويصفق للمغنية التي تعجبه وتطربه .

هذه الذكريات تبدو بعيدة كأنه عاش بعدها قرنين كاملين .

بدأت لفائف دماغه تتحرك ببطء مثل الساعة التي أدر كها تعب مفاجئ .
 اتخذ قراراً في الحال (الملهى . الملهى سأقضي ليلتي هذه في الملهى) وجد نفسه بعد عشر دقائق في مكان بارز في حديقة الملهى أمامه منضدة صغيرة عليها غطاء أبيض نظيف ووعاء من المعدن لأعقاب السجائر وحوله ثلاثة كرسي أخرى خالية من الخبزران . أمامه مسرح كبير مضى بأنوار ساطعة وفوقه العازفين ومغنية نحيفة بيضاء الوجه قد احتضنت الميكروفون لتصب فيه أغنية من أحسن أغنياتها . وضع أمامه علبة السجائر والثقاب وتلفت حوله في أرجاء المكان . أشجار كثيرة باسقة من الكالبتوس والدفلة وظلال كثيفة . شعر برغبة ملحة في التعرف على الجالسين تفحصهم واحداً بعد واحد فلم يجد بينهم شخصاً يعرفه . جلمهم من الصبيان المتأنقين الفارعين وبعض الموظفين من الدرجة الرابعة عشر وآخرون شيوخ وأعراب .
 لاحظ الرقصات قد ازوين في الأركان المظلمة تحت لفائف الشجر عليهن بدلات في غاية الاناقة يتحدثن مع رجال أثرياء . كؤوس من الشراب الشميين . البراندي والويسكي تصعد برفق الى الشفاه الملطخة بالأحمر فتمهد سعيد .

ظهرت على المسرح مغنية ووقفت أمام الميكروفون تغني أغنية عصرية

شائعة . أصوات الجوق متنافرة وحشة . وهناك قطة بيضاء مميّنة رابضة على المسرح تلتقط الحشرات الصغيرة والجراد ، تأمل سعيد القطة كيف تفاجيء الجراد وتلتهمها بين أسنانها الحادة .

استعرض حياته منذ أتى من البصرة ودخل مدرسة دار المعلمين الابتدائية ، كانت معه شهادة المتوسطة . درس ثلاث سنوات متوالية دراسة مضنية متعبة وشغل نفسه بدراسة الأدب العربي وحفظ الدواوين والمعلقات . ثم عين معلماً في سامراء لأول مرة ثم في مندلي والسعدية وبغداد وعلي العربي وخانقين والموصل ثم في خانقين واخيراً في بغداد . ثم زواجه في الموصل تذكر ايام غرامه بفهيمة يوم كانت فتاة حية نحيفة نحيلة ضعيفة الخصر صغيرة الصدر . احبها واحبته وتغازل معها زمناً . كان بيتها جوار مدرسته فكانت تطل برأسها عليه وهو في الصف فتبتسم له وتحتفي ثم تزوجها ، منذ يومها ذاك بدأت ترهل وتسنم لم يعد لها ذلك الخصر النحيل الذي طالما سبي له ولا تلك النظرات الحية الخفرة ولا ذلك اللسان الضعيف المؤذب . لم ينس شتاؤها في ذلك اليوم فانها واحدة من بنات الشوارع .

ظهرت راقصة على المسرح بطنها تهتز على انغام الكمان وصدرها ناهد متوثب وجسمها مكيف طبقاً لمشتريات الرجل . تلذذ سعيد بمشهدها ومط شفتيه . لعن الشيطان ولعن زوجته السخيفة القادرة فانها كيس من اكياس القطن . غاص في احلام لذيدة . ثم استفاق على حين غرة ،

اسف لمثل هذه الأفكار الفجة الذي راودته رغمًا عنه .

وقعت عيناه على منظر غريب فخلق فيه بدهشة من هذا ؟ فؤاد
نعم فؤاد تلميذه القديم منذ خمس سنوات . تذكره سعيد جيداً كان
كسولا كفيف المخ برع في قراءة النشيد والرياضة البدنية ، يلعب نجمة ايام
المسابقات والاستعراضات و ايام الامتحان يفش ويسترق النظر الى
اوراق زملائه المجتهدين .

كان قاعد على كرسى من الخيزران فى وسط الجوق ، مرتدياً
قميص ابيض وسروال من السرج ، شعره كفيف اسود حسن الترجيل
وعيناه كبيرتان كعيون لص .

لاحظ سعيد ان له مكانة مرموقة بين اعضاء الجوق واحياناً كثيرة
تنحني نحوه المغنية وتممس في اذنه حديثاً هاماً كأنها تستشيريه فيما يجب
عليها ان تفنى .

تقاطعت نظراتهما فهت ضارب العود وسلم بيده الممسكة بالريشة
على استاذة سلاماً في غاية الود والاحترام ، وابتمس ، وفي فترة
الاستراحة جلس الى جواره . هتف ضارب العود بشوق .

- اهلا يا استاذ سعيد . . . اهلا وسهلاً تشرفنا . ما هذه الزيارة

الغريبة لم ارك هنا قبل اليوم .

تخبر سعيد واجاب :

- منذ زمن طويل تركت ارتياد الملاهى . اما الليلة فقد شعرت

بالضجر ثم صادف مروري على الجسر فاشتقت ان افضى ليلتي هنا .
- احسنت صنعاً . . . ملهانا خير الملاهي محتشم وراقي والراقصات
من احسن الفئانات . . . انا فرح بوجودك هنا .
- سأل سعيد متلعثماً :
- كم عددهن ؟ هل هن كثيرات ؟
- هن عشرة واحياناً اثنتي عشر . . . اثنتان فقط ترقصان والباقي
مغنيات .

- عدد كبير !

تلفت ضارب العود حوله فوجد استاذہ بدون كأس ، ومنضدته
فارغة فسأله مستغرباً :
- انك بلا كأس الا تشرب ؟ سأدعوك كأساً ، لاتعارض
سيكون على حسابي انا .

واحضر له الكأس في الحال ، فارتشف سعيد ثلاث رشقات
متوالية وقرض بين اسنانه قطعة من الطاطاة ، فشعر بالنشوة ، تلفت حوله
متقصياً كل ارجاء الملهى حتى الزوايا المعتمة تحت اشجار الكالبتوس
والدفلة ، فشاهد الراقصات منتشرات هناك على الموائد برفقة الرواد
الأثرياء .

امطره فؤاد بهبارات الترحيب حتى اخجله ، لم ينقطع ترحابه لحظة ..
اهلا بالاستاذ تشرفنا انت ضيفي ، انا مسرور بلقائتك ، سأله :

- كيف حالك بالتعليم ؟ هل انت مرتاح ؟
- كلا ، اجاب : لست مرتاحاً المهنة شاقة تعبني .
- آه انا اذكر جيداً اتعابك معنا ، ا تذكر ؟ كنت غيباً انا ، لم افهم شيئاً ها ها ها لفة صعبة الفاعل والمفعول .
- هل لا زال الفعل الماضي مبني على الفتح ؟ اثار هذا السؤال اقصى ما ادخره سعيد من مرح . فانطلق مقهقها وقهقهه معه تلميذه .
- هل يتغير هذا ؟ مبني على الفتح منذ امرؤ القيس وسيدويه وحتى زمن عدنان وقحطان ولا زال ها ها ها ها هذا ظريف سؤال ظريف جداً . هاهاها واستمرت ضحكته عدة ثوان متوالية .
- تركة تلميذه والتحق بالجوقة بعد أن أتحفه بكأس أخرى . إبتدأ الغناء كان فؤاد نفسه يعني هذه المرة ويضرب على العود . أغنية مرحلة شائعة ، (على ورق الورد حاً أ كتب لك) كان يعني بصوت شجي عميق النبرات نال استحسان الجالسين وخيل لسعيد ان فؤاد يعني له وحده احتفاء به .
- فسر وهز رأسه وضرب المائدة بكف يده منتشياً .
- عاد إليه مرحلة الذي فقدته منذ عشر سنوات وعاد اليه شبابه القديم يوم كان يخمّر في الملهى وينحدر بعد منتصف الليل الى المواخير فيمزح مع البغايا ويربت على خدودهن ويلهو ويعني .
- فى نحو الساعة الثانية عشر عاد الى منزله يتمايل ويردد فى صوت خافت آخر اغنية سمعها فى الملهى ، لم يبال بشيء ولم يستغرب سلوكه

الشاذ . مر بدكان جاره الاسكافي بدون تخرج ووقف عند بابه المغلق .

هز الأقفال بيده بشدة وضرب بكفه على صفيحة الباب صاح :

- اين انت ايها الجبان ايها الأسكافي الحقير صاحب اللحية ، اين

انت الذي اعتديت علي اعتداء وحشي ، لمن اخافك بعد اليوم .

فكر ان يدس عود ثقاب ملتهب من تحت الشقوق فيشعل جلوده

واحذيته ويجعله يلطم على وجه صباح الغد من هول الذسكة التي ستقضي

على بقية عمره الرذيل .

- لا لا ، آسف - ليعش هذا المسكين الذنب ليس ذنبه هو احد

ضحايا سوء التربية لا اريد شراً باي انسان ، اود ان احيا بسلام ،

لست مجرماً لست شريراً ، ومضى في سبيله .

* * *

في الصباح لاحظ استياء زوجته منه ، لم تعب عنها سكرته نيلة امس

ضايقها على السرير ولطم وجهها وازعجها من نومها وتحملت رائحة فم

الكريهة ، قالت له معاتبه :

- بدأت تسكر يا سعيد هل عدنا من جديد ؟

- يعني انا حيوان مسجون في قفص . . . احياناً اغشى الملاهي واسكر .

- الملاهي ايضاً ، هل عدت صبيلاً ؟ انت صاحب عائلة واطفال ،

ما تدفعه في الملهى انفقه على اطفالك ، اردفت في توسل .

- عدني الا تسكر مرة اخرى يا سعيد ارجوك الحالة لا تسمح

انت تفهم هذا حق سعيد . وصاح ساخطاً .
- تصحيني ؟ انا لا ادري واجبي . هذه مسرة تافهة لا تؤذي
احداً ، الأطفال والايجار كلها على خير حال ، انا انا الذي اتلف انا
بقرة انفع فقط ولا انال غير الحشائش اقتصادي انت لم اعد احتمال بعد .
صحتي انهارت واعصابي تحطمت واخشى ان يفصلوني من الوظيفة .
مضى شهر واعقبه آخر ، سعيد حريص على تطبيق اوامره المشددة
لم يسمح لأولاده بالاختلاط . وحياناً عندما تضيق صدرهم يصحبهم الى
حديقة عامة فتأتي فييمة كذلك تسير وراء الموكب مشتملة بعباءتها ، تلم
بها بدنهما السمين . لم تجرأ على معاندة زوجها بشيء ، تجده مسروراً
بدكتاتوريته الصغيرة فلم تشأ افسادها عليه .
دائماً في الحديقة يختار المصطبة البعيدة المنعزلة ، يتزود (بالحب)
ليمتع به اطفاله ويعنى هو بدراسة اشجار الحديقة ونباتاتها ، وحياناً
يتجاذب الحديث مع الحارس والبستاني ، ويتناقش معهم حول الأشجار
النابتة في العراق والأشجار المجلوبة من الهند .
الأطفال يلعبون حوله بحيث يكونون تحت نظاره ، لا يفتأ يناديهم
ويرجوهم الاعتناء بنظافة ملابسهم ، وفييمة تبقى صامته تأخذ حصتها من
(الحب) وتقرضه بهدوء مثل البيغاء ، واذا مرت بها سيدة انيقة سافرة ،
تمحصت ملابسها بدقة وحلت ادوات زينتها واعطت رأياً في محاسن
وجها ، فينظرها سعيد من زاوية عينه ويتسم .

- ها فهيمة كيف وجدت لباسها ؟ اراها رائعة فتانة ملابسها أنيقة .
يمجني هذا التفصيل .. ولكن لا يليق لك .
فتفزع وتسال :

- لم لا يليق بي ؟
- هي نحيفة خفيفة ، انت والدة اطفال وسمينة .. جسدك كبير
- اية سمينة ! انا لست سمينة .. شي عادي ، ضعيفة احسن كالعصا .

* * *

زوجة الاسكافي بدأت تنشر شبا كها وتتحين الفرص للسلام على
فهيمة تلتقي بها في السوق فتسألها عن اسعار الباذينجان والطماطة ، واللحم
وتتحدث عن غلاء الفاصوليا وندرتها ، واهياناً اخرى تصطحبها الى
المنزل ، تتحدثان في الطريق في امور عامة دون ان تجرأ احدهما على
دعوى الأخرى . ولاحظت فهيمة ان الاسكافي صار يش في وجهها ويرحب
بها ويلطفها في الطريق ، فبدأت تلين ، ولسكنها لم تجرأ على مصارحة
سعيد بشيء .

افتتحت المدارس وعاد الى القاء دروسه في اللغة العربية ، القواعد
المعاداة تخرج من فمه كل سنة بلا تغيير كلاسطوانة التي لا تزيد ولا تنقص
ذات ليلة عاد الى منزله متأخراً ، كان المطر ينهم مدراراً والاحوال
كثيرة قد غطت الطريق كله فصارت قدماء تقوصان في برك الماء ، فنفذ
الى حدائه وجوربه وبللها ، يعلم ان حدائه قديم ، جلده السفلى بالية مثقبة

ومجزت المسامير المتهرئة عن امساكها . وفي تلك الليلة وصلت مرحلتها الأخيرة ، انحلت الجلدة تماماً وصارت كلسان الثور تصعد وتنزل فلحن سعيد حظه ، حتى الحذاء بدأ يتململ تحت قدميه وينادي بالاصلاح .

في الصباح دعا ابنه وقال له :

- خذ حذائي هذا يا فوزي واصلحه عند الأسكافي ، لا الاسكافي جارنا ، حذار ان تقرب منه ، اسكافي آخر بعيد .

وصدع فوزي بالأمر تناول حذاء ابيه وخرج به مسرعاً مر بالأسكافي الجار دون ان يلتفت له . الا ان هذا ابصر به ولاحظ الحذاء (الجريح) الممزق فوجدها فرصة ثمينة لاتضيع لمصالحة جاره ، قفز من مكانه وامسك بفوزي اين انت ذاهب يا فوزي ؟

- اصلح حذاء والدي اتركني منعني من التقرب اليك .

- هات الحذاء انا اصلحه لأبيك ، انتزعه من يد فوزي بقوة وهو

يقول باستياء :

- الاتخجلون ؟ الاتستحون . نحن جيران اصدقاء . لمهذه الجفوة

الطويلة ؟ عجيب شجار بين اطفال ينتهي الى خصومة وعداوة بين الرجال .

انا احب سعيد غاية الحب واحترمه . تعال تعال سأصلحه في الحال لا تخف صاح فوزي حانقاً : (اوصاني ان ابتعد عنك اعطني

(الحذاء) .

لم تجد صرخات فوزي جلس على طاولته القدرة الغبرة يصلح حذاء
جاره اردف بصوت حنون (انتم مثل اولادي انا احبكم .. تعالوا عندنا
العبوا وامرحوا .

احتر فوزي وهم ان يختطف الحذاء من بين يديه ولكنه اعجز من
مقاومة تلك اليد الكبيرة الغارقة في الشعر .

شد الجلدة بالخيوط ودق جوانب الحذاء ودس في ثناياها مسامير
كثيرة حتى اصلحها . قال بارتياح : انتهينا ، اصبح حذاءً جديداً هيا
معي يا فوزي سأحمه بنفسى الى ابيك . اريد ان اسلم عليه واعتذر له
ونتصالح .

وصل الاسكافي بيت سعيد دق الباب بيده الكبيرة . فخرج سعيد
وصعق ، صاح به غاضباً : ماذا جئت تفعل ؟

- تفضل حدائك يا عزيزي انا اصلحته لك ، قال الأسكافي بلهجة
رفيقة اخوية : لا تفض علي انا جارك وصديقك ، هي مسألة اطفال ، لم
هذه الخصومة ؟

اثر في سعيد عبارات جاره المؤدة الصادقة .

مد يده النحيل ، فتردد سعيد وهم ان ينكص على عقبيه الى داخل

المنزل .

(٣١)

اردف الاسكافي بصوت رقيق ، صافحي ياعزيزي ليست بيننا اية
عداوة صافحي نحن اصدقاء اخوان جيران .

سمعت فيمة ما يدور عند الباب فتركت مشاغلها واقبلت مستفسرة
ثم خرجت الجارة واشتركت ايضاً في عملية المصافحة . واخيراً تم الصلح
وتمت المصافحة اما الجارتان فكانت القبلة الحارة هي الدليل النهائي
للمودة الموقنة .



المأمور العجوز

في ذلك المساء بالذات ترك السيد قدرتي مسكن مدير الناحية وخرج الى الطريق المغبر الذي قامت على جانبيه مساكن صغيرة متهافتة من الطين الخالص لا نوافذ لها ، وأما لها باب ضخم ثقيل لا تجد فيه حتى خشبة واحدة سليمة من العطب والحدهش ، وعلى الابواب الجدران المائلة وقف الصبيان الصغار يبدو عليهم التعب والملل ، من كثرة ما لعبوا ساعات النهار بالتراب ، وعلى حفر في المياه الآسنه ، فبدت وجوههم من خلال ظلال المساء الباهته برونزية جامدة لا يخال للناظر ان درائها عروقا يجري فيها الدم . وتبدو جلاليتهم من فرط قدارتها كأنها من لون واحد ونسيج واحد . في مطلع كل عيد (سعيد) تصيب أجسادهم ثوبا من القماش السميك الداكن اللون يعمل به الخياط مقصه عيناً وشمالاً ثم يجمع القطع المتتورة تحت خيوط ماكنته فيخرج ثوبا غريباً مضطرب المقياس . ان

القناعة كنز وتلك حكمة قد شدوا عليها بانبياهم وحرصوا على تطبيقها
باصرار .

مشى في طريقه وهو غير عابئ لشيء وائى شيء يعبا له الانسان
في مثل هذا المكان المعزول البعيد ، فالشهد واحد والصورة واحدة عن اليمين
مزارع السيد (س) تمتد قرابة ثلاثة اميال ، حقاً ان لها منظراً فاتناً
فجدوع النخيل سامقة ممشوقة الشطاط تستظل بظلها الوارف اشجار
البرتقال والليمون وينبعث من ارجائها ومن لفاف شجرها زقزقة العصافير
والبلابل ونعيق الغربان ، قد اجاد صاحبها في حراستها فصف على حدودها
اكوام الطين حتى جعلها عسيرة المنال صعبة المرتقى . وعن الشمال بستان
الحاج (ع) قد تأثر كثيراً بأساليب صاحبه فكتمل الطين على بستانه
وترك لها باباً يقف عنده فلاح شديد المراس . كلما اقبل من العاصمة
ضيف ذو خطر وسيادة ، شرع الباب على مصراعيه ووقف الحاج
المؤدب يؤدي فروض الطاعة والاحترام ، وبعد ذلك فالبستان حلال
محال تهوى تفاحاته وكثراته وبرتقاله الى المعد الشبعة وعينا الحاج
تدمعان من السرور والبهجة .

وعلى طول الطرق هذه المغاور التي يسكنها قوم من البشر . قاعد
في وسطها التنور والدجاج يتقافز وينبش التراب ويلتقط منه كل شيء
حتى المسامير ، والكلب الكسول الشرس قد طوى ذيله وقعد على الأرض
ينتظر وظيفته مع الظلام ، وبين آونة واخرى يبرز للسيد قدرى من

اقصى الطريق شبح رجل يتقدم ملفف بعباءة خشنة ثقيلة وعلى وجهه لحية
غبراء مشوشة فيلقى السلام ويسرع الخطى ثم يختفي في صوب من
اصواب البلدة ، اقبل نحوه السيد محمود حاملاً سماً خشبياً رقيقاً مع وعاء النفط .
يقوم بوظيفته المتواضعة يسند السلم الى جذع الشجرة او الجدار ثم يرتقى
درجاتها الهزيلة حتى يصل المصباح فيصب فيه قليلاً من النفط ويزيل عن
زجاجته السخام ويحكم وضع الفتيل ثم يجعله مضيقاً وهكذا يمر بكل
المصاييح حتى يصل الى مصاييح المدير التي تضيء عتبة منزله فهناك يزيد
اهتمامه ويزيد فيها نفطه . كم يكون سعيداً حين يصادفه المدير وهو يقوم
بتأدية واجبه ان يضع كلمات عابرة تتبادل بين الرجلين . الأول يؤكد
اخلاصه وولائه وطاعته ويؤكد الثاني غطرسته وسيادته ويفترقان انه يعلم
حق العلم ان م ظم المصاييح المضاءة تطفأها الريح (الحنون) وتسود البلدة
ظلمة مطبقة . ولكن ما اهمية كل هذا ان في البلدة مصاييح ترشد الناس
وفوق هذا ان في المصاييح نفط يتقد . كان على الرجل جلباب ابيض
نظيف وقد اطلت من جيبه علبة السكاير وفي قدميه نعلان جديدان ويبدو
وجهه صوباً مشرقاً رغم الشحوب والهزال اللذان يبدو ان عليه قيل انه
في الصيف الماضي اصيب بالسل ثم شفي بالعجوبة ولا زال الناس يعجبون
كيف ان الرجل لم يأخذ مكانه على سفح التل ويرقد مع آلاف الراقدين .
مر بالسيد قدرى وقرأه السلام وتبادلا تحيات مجاملة رقيقة . اقترب من
القطرة فوجد عندها امة من النساء يغسلن لبوسهن واشياهن في الجدول

الوحيد في البلدة .

ويخرج من بستان السيد (س) ويقطع بعض احياء البلدة ثم يعرج الى بستان الحاج (ع) .

الاطفال قد تجمعوا مع امهاتهم ورأى السيد قدري ان بعضهم يقضي حاجته ويفتسل ورأى صاحب العربية قد عاد توأ من المحطة وفوق عربته ناذج قروية صغيرة . العربية تمايل عجلاؤها والحوذى بهزيمينا وشمالا والخيول منهوكة هزيلة تليق جداً بالحوذى وركابه . في الليل يدع العربية في الطريق ويسوق حصانيه الى منزله . كثيراً من هؤلاء الاطفال لم يركبوا هذه العربية وكم تمنوا لو سافروا يوماً بالقطار وذهبوا الى المحطة محملين على مقعدها الوثير هذه الاماني الصغيرة تدور في رؤوس الغلمان .

قبل بضعة ايام قرأ قدري في احدي الصحف عن هذا الجدول الصغير القدر الذي اتخذه الناس مورداً لشربهم ومكاناً لتسيلهم وملعباً لاطفالهم ومكاناً تستقي منه الحخير مياه شربها وطالب الكاتب ان تنشأ في البلدة دار لتصفية المياه ومولدة للكهرباء بدل الفوانيس التي تطفأها الرياح وتعيد للاذهان صورة مقبته من صور القرون الوسطى ومما أدهش السيد قدري ان يعلم ان كاتب السطور هو شاب من شباب البلدة التي يظن بهذا الحمول وكم أسفه ان يعلم كذلك ان المدير غاضب حانق لا يريد صحفياً من هذه ولا يريد كتاباً على شاكلة هذا الشاب وكان يتمنى لو ان الكاتب استعمل بلاغته في مدحه واكباره بدل المطالبة بمشاريع لم يحن

حينها الآن .

ان الدنيا تتقدم وترتقي حتى في هذه البلدة الخاملة التي لم يلبس احد من اهلها سروالا يظهر بها شباب مثوئب حي يقرأ ويكتب ويطالب وله في السياسة رأي . ولكن رجلا مثل المدير قد يوقف مجرى هذا التيار الطيب ويجد بعد حين ان المياه الكثيرة التي صدها قد تسالت الى الاعماق .

* * *

كان يحس بانحراف في صحته وبقلق مضجر بفيض قد اخذ نفسه من اقطارها هذه النفس الساكنة الوديمة التي عاشت في صدره خمسون عاماً مطمئنة هادئة لم يدر ما الذي اضجره واتعبه وذهب براحته كل مذهب . ان آلاما صغيرة لسنوات كثيرة تكثرت وتصلبت وجلست على قلبه كجبل من صخر ثقيل .

له عائلة كبيرة في بغداد تتكون من زوجة وثلاث فتيات في سن الزواج وابن صغير واحد يتلقى علومه في المدارس الثانوية تركهم جميعاً وجاء الى هذا المكان الضيق ولكن ما حيلته . تصدى له شاب حدث يده وساطة كبيرة من رجل خطير فقلب الامور رأساً على عقب في وجه السيد قدري ، فالقوا به في هذا المكان كالثوابة التي لا تنفع وبقي الشاب في العاصمة يكسب ويدرس في الحقوق وقد يأتي غداً الى البلدة كمدير جديد فيقف له الموظفون الشيوخ اكباراً واحتراماً وفزعاً .

حينما قبض راتبه في نهاية الشهر المنصرم قفل الى بغداد لرؤية اهله وعائلته وليجدد عهده بهم بدنانيره . في صباح يوم مطير كان يتجول في السوق بحثاً عن سترة كانت وجهته سوق السراي وباعة الالبسة المستعملة هم هدفه وقصده . كلما رثت سترة من فوق كتفيه هبط على هذا المكان ليفتش له عن سترة اخرى وبينما كان البائع يشجعه على سترة معينة رأى امامه الشاب المهندم الذي حل محله في بغداد يختال في بدلة انيقة ومعه امرأة .

كان وجهها يشبه وجه ابنته سميرة ، فاحترار هل هي ابنته حقاً ام فتاة اخرى . كان قد وضع السترة المستعملة على منكيهه والبائع في اغرائه لبقا محدثاً فلم يدعه يفلت من بين يديه حتى كان الشاب والفتاة ، قد ابتعدا كثيراً وضاعا في زحمة السوق . وظل هذا الخاطر المقلق يراوده في حدة واصرار وتمثلت له هذه المهزلة العجيبة شاب يراود ابنة الرجل الذي سعى لاقصائه واحتل وظيفته في بغداد . يقولون ان بغداد بلا مسارح . ايها الناس ان المسارح في كل مكان في البيوت وعلى قارعة الطرق وفي دواوين الحكومة يستطيع المتفرج ان يفرقه عالياً حتى ينقلب على قفاه ويستطيع ان يبكي بمرارة حتى تحمر عيناه . يعرف السيد قدرتي ان في بغداد شباب قد نخره الفساد وادركه ظمأ جنسي والصيد بالشباك يقع في الطرقات والسينيات ، كل قد خرج بفضه وبراعته وضروب اغوائه وفتونه . ماذا سيكون مصير ابنته سميرة ماذا ستصنع في غياب الوالد

المحترم؟ ان في اليوم اربع وعشرون ساعة ممكن ان يقع فيها اربعة وعشرون حادثاً كل منها كفيل بتقويض كيان اسرة .

في صباح اليوم التالي قام الى فطوره فيها بنفسه ولاجل ان يوفر على نفسه المتاع يكتبني بايسر الاطعمة واهوتها صنغاً . شاي مع قليل من الحليب ولقمتين من الخبز على رأسها شيء من الزبد . ثم ارتدى ملابسه واتخذ سترته تلك التي اشتراها من سوق السراي . ليست انيقة ولكنها على كل حال شيء لها مكانته واهميته . وبارتقاء وبيطه خرج الى الطريق .

وظيفته مأمور استهلاك ومحل عمله غرفة صغيرة معتمة داخل خان قدر وسط سوق مزدحم . كان الصباح مبهجاً بالشمس الساطعة على الطريق ظلل الاشجار العالية الوارفة من بستان السيد (س) وانعام شدو الحمام وزقزقة العصافير تأتي منعشة سارة والفلاحون قد خرجوا من مكانهم يسوقون امامهم حميراً صغيرة تدب على الارض في خفة وتثير ورائها حنقات التراب . والمدرسة الابتدائية الوحيدة في البلدة تدق في جرسها وتدعو الطلبة الى الاجتماع والمعلمون يهرولون ويحشون الخطى في بدلات عتيقة واحذية ضخمة مرقعة ومنظر اطفال الصف الاول مضحكاً قد حضروا بلا احذية وبلا سراويل كل بيده كتاب الخلدونية يمد على نفسه درس اليوم ودقراً قدرأ مزقاً قد قبضوا عليه بشدة لثلا يشرد من بين

أيديهم .

وموكب المدير يختال في ابهة قاصداً ديوان عمله . والفعلة البسطاء قد احتشدوا على المقهى ينظرون في احترام بالغ . اما السيد قدري فهو في طريقه الى السوق يمشي منفرداً مطرقات تحت ابطه سدارته السوداء العزيزة وشعرات رأسه في جهد جهيد استطاعت ان تسد الصلعة القابعة على الرأس يمشي في تؤدة واحترام والبسطاء الجالسون في المقاهي لا ينظرون اليه في احترام كبير ولا يجدونه رجلاً يبطش ويخيف .

عندما اجتاز السوق ودخل الحان شعر بمزيد من التعب والاعياء وبدوران خفيف يصيب رأسه راح يحدث نفسه . في هذا الوكر القدر في هذا الحان الذي ترابط فيه الحجير والبغال والخراف وعلى ارضه الخضار العفنة والفواكه الفاسدة وعلى جدرانه غبار وقاذورات عشرات السنين وفي غرفه ينام المشردون والحفاة والشحاذون والغرباء واللصوص من كل لون من الناس ينامون ويشخرون ويلقون الفضلات على السلم فتح النافذه وهتف في حسرة . هذه دائرة السيد قدري هذا ديوانه ومكان عمله . خدمة عشرون سنة تم في هذا المكان الذي تأبى ان تعيش فيه الكلاب . ماذا اصنع شاب في سن ابني يأخذ مكاني بقوة (الكارت) ويبقى في بغداد سعيداً وثم ماذا يصنع يلاحق ابنتي سميرة ويغازلها ويخرج معها الى السوق . اني لا استطيع ان اتنفس هذا الهواء كل شيء هنا يخنفتي يجب ان اذهب الى الوزير وابسط له شكائتي

كانت الحركة في السوق قد بلغت مداها ، رحى المعركة يدور في عنف الباعة في جهة والمشترون في جهة والسلاح الورقي يستل ويعمد في الأحشاء والبطن ، تكا كأوا عليه كالذباب . « هيا سجل لنا اغنامنا وابقارنا وحنظتنا وشعيرنا وفواكهنا واقطع لنا وصلا » . اخرج مفتاحاً صغير من جيب سرواله وفتح به الخزانة الصغيرة القاعدة على طرف المنضدة واخرج منها اوراق ووصلات مختلفة . ثم راحت الدنانير تمطر عليه مدراراً فيعدها سريعاً ثم يحشرها في الخزانة ويده النخيلة ممسكة بالقلم تضغط به على الأوراق فتخرج ملوثة بكتابات سريعة مشوشة ويجري عليها في اسفلها فيضع السيد قدرى توقيعه الصغير الذي يشبه الذبابة .

دائماً الدنانير تخرج من جيوب كثيرة مختلفة وتنساب في رفق ونظام الى الخزانة الصغيرة لتبتلعها في جوفها ثم ينقلها الى خزانة كبرى في بغداد ولا تعود مرة اخرى .

كان يعمل بسرعة وخفة ليستا من وحي القوة بل في شيء من العصبية والحدة والضجر ويتسم في غالب الأحيان ابتسامة صفراء باهتة كأنها كانت الى آخر لحظة شهقة بكاء فتحولت على وجهه الى ابتسامة ويأتي بحر كات تلقائية لا معنى لها حتى تكون الساعات الست قد انصرمت فيخلو ديوانه من الناس ويشعر كل شيء في الغرفة تعب مستنفذ حتى حجارة الأرض ، فيجمع اوراقه واشياء عمله ويميدها جميعاً

الى مواضعها ، ويوصي الفراش ان ينظم الغرفة ومقاعدھا ويحكم قفل الباب ويلحق به في المنزل وفي طريقه يجد السوق قد لفظ الكثير من رواه . والباعة عند ابواب دكاكينهم يستمعون في شوق لى طنين الذباب فوق رؤوسهم وبضعة كلاب رابطة عند موضع الجزارين ولحوم الماشية والابقار معلقة في اھمال على المشابك وعلى الأرض عظام قد اختلط بها الطين وباعة الأقمشة قد احتفظوا بنظافتهم ونظافة اقدامهم ، النساء يساومن على الحرير الناعم اللين ورجال مثل الاعراب مقبلون من البادية يريدون ثوباً من النوع الذي يعيش اثنا عشر شهراً .

يجد السيد قدرى زملائه الموظفين قد خرجوا من دوائرهم كل على قدر اھميته معاون الشرطة في صف من رجاله والمدير مع كتابه وحراسه والمعلمون يسرون في هرج الصبيان ، كانوا جميعاً شباناً في مقتبل العمر عليهم بدلات لائقة وشعورهم مصقولة ومرجلة فوجد نفسه بينهم كالشمطاء النادرة . لم يبق في البلدة عجوز سواه هو وحده يضع الصباغ على شعر رأسه وهو وحده يشكو الروماتيزم وسوء الهضم وهو وحده الذي تساقط اسنانه وغارت وجنتاه وادركه الهرم . حتى حدث ان تشاجر مع احد الموظفين فسمعه يقول مازحاً مستخفاً : « هذا مأمور استهلك أم مأمور مستهلك ؟ » وراحت هذه التسمية تدور على الألسنة في الخفاء حتى سمع يوماً احد الباعة يصرخ في وجه ايها المأمور المستهلك فاستشاط السيد قدرى غضباً وهم ان يمسك بتلابيده ويلطم وجهه واكنه وجد امامه عملاقاً

ضخماً مرعب الصورة فكظم غيظه وصحح للقائل خطأه : يجب ان تقول
 مأمور استهلاك لا مأمور مستهلك وكفى .

* * *

في المساء لم يذهب السيد قدرى الى منزل مدير الناحية وان كان يعلم
 ان تعييه من الأمور التي يستلزم لها ايضاحاً والا كان في نظر المدير من
 المحالفين . اشباع غرور هذا المدير من الواجبات الاديبة الملقاة على عاتق
 كل موظف . يجب ان يحضر وينصت ويؤكد وينتزه المناسبات الطيبة
 الفريدة ليشيد بعمران البلدة ومطارحها وما اكتسبت من رونق ولطافة
 خلال عهده السعيد . ان الرجال التافهين يبحثون عن المجد في المجالات
 التافهة . كان السيد قدرى يشعر بمزيد من التعب وبمزيد من الحاجة الى
 الراحة .

فدعا خادمه واوصاه ان يضع له الشاي ويمكث الى جانبه . تمدد
 فى فراشه خائر القوى شاحب الوجه قد انفرطت شعرات رأسه المصبوغة
 وراحت الى الوراء فالتمعت صلعته الكبيرة تحت ضوء المصباح الباهت كان
 يعاني انفعالات حادة فى نفسه فارتسم على وجهه الحزين غيظ مكتوم
 متجرد لوشاء لهجم على اثاث الغرفة جميعها وهشمها فى غضب ونقمة .
 الفراش قذر مهلهل وتحت رأسه وسادة صلبة كانها لوح من خشب وعلى
 الجدار مشجب قديم . ترسو عليه ملابسه الكثيرة الوسخة منها والنظيفة .
 وفى خلال الفترة التي كان فيها الخادم يروح ويفدو لهيئة الشاي انصرف

ذهنه الى نفسه . انه قد قارب عامه الخامس والخمسين وان كان في سجلات الدولة في نحو الخمسين وان احواله على التقاعد من الامور المحتملة ولكنه لم يجزع لهذا الخاطر . كم يود ان يرتاح بضع سنوات قبل ان يموت . يعيش كأني رجل متقاعد في بغداد يستمتع بنوم الصباح ويمشي الى مقهى عارف اغا فيلتي بجموع مختارة من امثاله يشرب الشاي والقهوة ويثرثر طويلا في امور الحكومة . ايه ما الوظيفة الصغيرة انها سجن وعبودية . تذكر المدير ذلك المهتمد المغرور الذي يصر على حضور السيد قفري لاشيء إلا ليشبع خيالاته وليقول الناس حتى الموظف المسن العجوز يحضر جلسات المدير فكم هو محترما وعظيما .

وبناته السيدات الصغيرات الجميلات انهن في بغداد بلا والد يرعاهن ويشرف على مصيرهن وذاك الشاب الذي رآه صدفة في السوق . كانت سميرة تسير معه بلا ريب وانه يطاردها ويلحقها ويحوك شبابه حولها .

قد تقع يوما في الهاوية فيقف يضحك ويتباهى ويقص قصة حبه على معارفه في المقهى أليس ظريفاً ان تحبني احد الفتيات الجميلات ؟ يتشوق باقاصيص غرامه وراء كل قصة امرأة طيبة في المجتمع يتتلها العالم اللدس وتذهب في صفوف الساقطات .

لو كان في صدره شيء من الايمان لتلطفت افكاره واستقامت واستقبل النهاية المحتومة بنفس رضية قانعة ولكنه شكوك مراتب قد

استجاب منذ زمن طويل لداعي الشيطان . لم تعد الحياة في نظره إلا صورة مشوشة مربكة فكّم حرى بالناس ان يعيدوا نظامها ويصلحوا حالها ويرتبوا شؤونها . انه في وظيفته مرتب منظم . ليس من ورقة الالهة محفوظة ترتد فيها وليس من فلس إلا له باب يدخل فيه اما الحياة فأورافها شذر مذر وفلوسها تدخل وتخرج . تصب صباً في خزانات وتنضب نضوباً من خزانات اخرى ولا احد يدري لم تدخل هنا ولم خرجت من هناك . انها لفوضى .

وعلى حين غرة انس في نفسه شيء من القوة فقام الى ملابسه وحطها عليه ثم راح الى المرأة يهيد عليها تنظيم شعراته ثم كان في الطريق . كان المساء قد نشر ظلاله الكئيبة السوداء واضواء المصابيح تلتع في كل مسافة كأنها قناديل في ضريح وقليل من المارة يتحركون ويسرعون ويتحدثون بصوت عال والمقاهي قد أشعلت مصابيح وهاجعة معلقة على الواجبات والمذيع يدوي باغنية مرحة واكواب الشاي محمولة على الأيدي ترتشف بشوق ورؤوس حاسرة ومعمة بالمناديل تهتز على النغمت . اشرف على منزل المدير وهم ان يدخل إلا انه سمع قهقهات حادة تنبعث من الداخل فتردد . شعر بضيق في صدره وتهافت في قلبه . من بعيد كان قطيع من الاغنام يتقدم نحو البلدة ودواب محملة بالمخضرات تتجه نحو السوق . في الغد كل هذه تأتي الى مركز عمله فيقبض عنها ضريبة وويل لمن لا يدفع فعاد الى منزله متعباً لا تكاد رجلاه تحملانه .

وفي صباح اليوم التالي لم ينهض السيد قدري من فراشه ولم يذهب
الى السوق ويدخل الحان القدر بل كل ما حدث ان فوجاً صغيراً من
الموظفين مع المدير المحترم ورجال البلدة واهلها حملوا على اكتافهم تابوتاً
متواضعاً وضعوه في سيارة مكشوفة فانطلقت الى بغداد .



على حقيقته... ?

الليل حالك السواد ، والريح الباردة الفارصة تهب بلطف ورقة فتصيب وجوه المارين الفلائل فتجملهم يسرعون خطاهم صوب منازلهم القريبة وحفيف الأغصان الرقيقة التي ظلت الطريق تهتز مترافقة فوق الرؤوس كان هو الآخرين من يمرون في تلك الساعة من الشارع الرئيسي في البلدة قد التف بلباسه الأسود الداكن وادخل كفيه في اكمام ثوبه الكبيرة .
أطبقتها قوياً فوق كرشه الثقيل .

اجتاز منازل البلدة ثم ناسها واكواخها والقي نظرات سريعة من وراء عيوناته السميكة على بضعة فلاحين قد تجمعوا على ابواب اكواخهم يوقدون النار أو يشدون دوابهم وبقراتهم الى الاوتاد . وقد التفوا بلباس خفيف مهلهل . واقدامهم حافية يتحركون في الظلام كالاشباح .
ومن بعيد كان احد الخفراء يتمهل على الطريق وقد تنكب بندقيته .

وعصب راسه بشال كبير وحذاؤه العسكري العتيق يدق به على الأرض
 المبلطة دقات مزعجة حتى وصل المقهى فدخل اليه وراح يصطلي بالنار
 المتقدة المشبوبة مع جماعة مرتعشة من العمال والفلاحين . وهذا الشارع
 وخلال من كل عابر فترامت امام عيون صاحبنا المزارع والبساتين الكبيرة
 التي تمتد الى مسافات شاسعة . وقد خيم على اشجارها ونجيلها سكون
 عميق موحش .

كان ذلك هو الكاهن قد خرج من توه من بيت رجل كانت والدته
 في مرض شديد فاستدعى لها الطبيب الوحيد في البلدة ودفع له اجره
 مضاعفاً ثم راح الى الصيدلي وجلب لها بضع قنان ملونة زاهية عليها اوراق
 جميلة مكتوب عليها كثير من الكلمات المبهجة . . .

شاهد الكاهن كل ذلك يقع امام عينيه لاشك ان اجرة الطبيب
 باهظة . وهذه القناني التافهة التي تكلف غالباً لاجدوى منها سوى التفاخر
 بها امام الأصدقاء والأقرباء وراحة الضمير من ان المريض قد نال
 كفايته بل وفوق كفايته من الدواء وان ارادة الله كانت في النهاية
 اقوى وانفذ . . . !

كان الكاهن يفكر ويحدث نفسه ان الرجل الذي زاره الليلة ثري
 مفتوح الكف قد اصابته في الأيام الأخيرة نوبة من الكرم والعطاء قد
 لا تمتد الى أجل طويل . . . !

انه بائع خمور في البلدة وقد تجمع له مال كثير من السكارى والشقاة

وأهل البؤس . ومن كل هؤلاء الكتل المتراسة المعمة التي تندفع مع الظلام الى الحانات الحقيرة القذرة والزوايا المعتمة الكثيية يجتسون المسكرات في كؤوس الشاي أوفي كأس كبيرة واحدة تدور على الافواه ثم يأكلون بعدها الحمص البارد . أو يقرضون قطعة وسخة من الفاكهة . ويترنحون في آخر الليل الى منازلهم ، لم يكن هذا موضع اهتمام الكاهن حتى ولم يفكر في السكرى والشقاة والحانة الحقيرة المظلمة والزوجات والأبناء الذين يتربون عودة سيدهم بالخبز واللبن فيجدونه مخموراً تمساً قد انزلق في الطين وتلوث سرواله وهو يلعن ويصخب والبصاق يتدفق على حواشي فمه .

انه كان يفكر في المرأة المشرفة على الموت . . ويفكر في كسبه الحلال الذي قد ضاق وتقلص منذ ان لفظ آخر ميت انفاسه منذ شهر .

كان ثرياً حقاً بذخ اهله واقرباؤه في تشييعه ودفنه واقامة الصلاة على روحه فاصاب هو نفسه نصيباً لازال يذكره بسرور وابتسام . حقاً ان الأعمار بيد الله والدعاء بالحياة وطول العمر من الوجائب الفاضلة . ولكن ماعساه ان يصنع وقد اصابته هذه اللوثة الخبيثة التي دخلت على قلبه وعقله وافسدتها وجعلته لا يحفل بشيء قدر احتفاله بالمال ! . .

في الربيع الماضي قدم هذا الكاهن الى البلدة وكان فقيراً طاموياً يتمتر في ثوب اسود طويل قدر وقد علق الغبار بوجهه ولحيته . . واعلن للناس ان الكنيسة بحاجة الى « جرس » لانه مظهر اساسي من مظاهر الكنيسة

وراح يتسقط بجسمه وكرشه كل انسان يصادفه حتى تجمع له بعض المال .
ولكن كان الناس كلما رفعوا ابصارهم الى برج الكنيسة وجدوه خالياً
من الجرم ثم ادعى بعد حين ان الكنيسة بحاجة الى سجادة يضعها الكاهن
تحت قدميه ! .

ولكن الناس يعرفون حقاً ان الأرض مبلطة بالطابوق وعلى الطابوق
يضع الكاهن قدميه حتى اليوم .

ان همسات كثيرة اخذت تدور على الالسن على شكل احتجاجات
وتبرمات خفيفة وكان يسمعا وكأنه غير واع . كانوا يقولون ان في جيب
الكاهن قائمة بأسماء الذين يتطفل على مائدتهم في الفطور والغداء والعشاء
ويقولون انه قد وضع تصميماً لنفسه الا ينفق فلساً واحداً . . حتى الماء
الساخن الذي يستحم به بمكان يجلب له من مرجل القاطرة . . وكانوا
يقولون انه لم يضع حارساً او بواباً يقوم على حراسة الكنيسة ويجلس على
بابها . . وانه نفسه - الكاهن - الذي يكنس الغرف . وينظف الاثاث
ويزيل الغبار عن الجدران والسقوف . . والله وحده هو الذي يعلم ما حاله
عندما يتساقط الغبار الكثير على رأسه ولحيته . . ! وحدث له ذات يوم
ان جابه احد الشبان المتهورين بسيل من التهم الموجهة . والكلام القارص
الشديد . وقد تبقى في ذهنه الشيء الكثير مما قاله ذلك الشاب الذي لبس
ثوب الشيطان . ! انه يذكره جيداً حيناً وقف في وجهه امام جمع حاشد
وصاح بوقاحة . . ايها « اللص » انك تتعاطى الربى وتخدع الناس .

وتسرق ثمن الجرس . والسجادة . . . ! وتعيش على موائد الفقراء انا
لسنا في حاجة الى امثالك . . . لقد استنشأت الكاهن عندئذ غضباً وخرج
عن صمته وهدوئه وامتدت يده الثقيلة فلطمت وجه ذلك الشاب بقوة .
ومنذ ذلك اليوم لم يعثر عليه انسان بالبلدة حتى اثار اختفاؤه تقولات
كثيرة . . . !

ظل ذهنه مكدوداً بتصورات كثيرة متعبة . . . لقد حسد الطيب على
الأرباح الطائلة التي يتأهلها من مهنته حتى في حالة شفاء المريض او موته .
وحسد الصيدلي ذلك الماكر الذي يمزج الماء بالحبر ويقدمه الى الناس . .
ويربح الكثير . . ! اما هو فربحه ضئيل قليل لا يتحقق الا يموت المريض
والسير وراءه جثمانه . . . وحضور الصلاة على روحه . .
ثم راح يحسب المبلغ الذي تجمع له خلال هذا الشهر . . . لم يكن كثيراً
ولا مشجعاً بالشكل الذي تمناه . اما وفاة هذه الشبيخة الصالحة والدة بائع
الخمر فسيكون لها فضل في تعديل ميزانيتها .

وصل باب الكنيسة وخرج من طيات ثوبه مفتاحاً كبيراً دسه في
باب الثقب واداره بقوة بين انامله فافتتحه . ثم دخل دهليزاً مظلاماً كثيراً
حتى وصل الى غرفته في النهاية . كان السكون شاملاً مطبقاً وقليل من
ضوء مصباح الشارع ينفذ الى جوف الكنيسة من الشبايك الكبيرة فأحس
الكاهن بالضجر والسامة والتعب أشعل مصباح الكهرياء وانحدر الضوء
الشديد الباهر على وجهه ولباسه الاسود . ثم راح يخلع ملابسه عن جسده .

ان الشيخة .. لا تصبح صباحها فهي قد تموت في منتصف الليل او عند
الفجر أو مع طلوع النهار .. ! وان النفس لا تدرى متى يأتيها السارق هذا
مايقوله الكاهن في مناسبات الموت ! .

وعلى اية حال سيأتيه بائع الخمر في الفجر فيقرع باب الكنيسة بشدة
وحدة ويصيح مولولاً باكياً لقد توفيت الوالدة احضر للتشييع فيرفع
الكاهن عينيه وينظر في دهشة واسف في وجه الرجل الحزين ويتمم
بكلمات التوبة ويقول في اسي مصطنع ليرحمها الله رحمة واسعة لقد كانت
امراًة تقية ورعة لم تخلف يوماً عن صلاتها ولم تنقطع عن زيارة الكنيسة
وجلب الشموع للعذراء ! . ولم تكدر مخلوقاً فيربت على كتف بائع الخمر
ويرجوه ان ينتظر لحظة لتهيئة ملابس الجنائز ، ويرجوان لا تكون نوية
الكرم والعطاء قد زابت هذا المخلوق الوديع الساذج .. .

لقد اجيز عليها (الكاهن) القديس قبل اوانها .. !

اما بائع الخمر ... فقد اهداه في مساء يوم دفن والدته ثمن عشر قناني
من قناني النبيذ الفاخر .. !

صديقان



رفع عينيه وتطلع الى الساعة الكبيرة المعلقة تحت سماء جامع مرجان .
كانت العاشرة تماماً . فوقف في مكانه تبعاً محترماً تسيل على جبهته
ووجنتيه قطرات من العرق الملح ، وعلى وجه امارات الضيق والكآبة .
كانت عيناه واسعتين جميلتين لونها اخضر عميق ، وله بشرة ناعمة
ملساء ، يحكم عليه من الوهلة الأولى انه زهرة يانعة تفتحت حديثاً
للحياة ... ولكن اية حياة !

كان الزحام على اشده ، ووصفير السيارات يعلو من كل شبر في الفضاء
ومواكب البشر تتزاحم وتتدافع بالمناكب كأنهم يحمل كثير منتشر على
الأرض . الوجوه لها عديد من الازياء والاشكال تترى باستمرار ،
وامارات الجدمر تسمه في كل مكان حتى بائع الحلوى والسيكاثر يدعو
الناس في لهفة وحرقة .

قد وفد على العاصمة رجال من الفرات ، في أعبية صوفية خشنة وعلى رؤوسهم العقال السميكة والكوفيات تمهدل على الأكتاف والأعناق يتشاورون ويتداولون عن السلع . وفريق من أهل الشمال قد أخذوا سيقاهم في سراويل فضفاضة وعلى بطونهم أحزمة من اللفافات ورؤوسهم مغطاة بشالات من الحرير الناعم . هم الآخرون يتذاكرون في مسائل عالمهم الصغير .

المهنة تجارة والحياة كسب وريح والذكاء والمهارة والخبرة في مجموعها تتكف وتتمجد وتتحول الى مادة صماء من الورق قد أحسنوا حشوها في جيوبهم .

البنوك والشركات والمتاجر والخانات وعمليات الدفع والقبض وحركات الأسعار تقف وراء الجميع كقوة هرقلية مستبعدة لا يجرأ على منازلتها انسان قد طغى طغيانها الفظيع ، تحرك هذا الكون الصغير وتلعب بمقدراته لعباً بهلوانياً ، فيتأثر من جرائه ملايين من البشر قد اتخذوا مواضعهم في القصور والبيوت والأكواخ والصرائف والكهوف ، بعضهم يصيب غنى فاحشاً وبعضهم يرضى بالنذر اليسير وهناك من يهمل بين اليد والقم ولا يطمع في المزيد .

وعلى الأرائك والعروش يجلس الرأسماليون والمضاربون والتجار والملاك يدهم أعة الفرص المطواع التي لا تضع قدماً إلا ورائها ربح محقق .
قبل أقل من ربع ساعة تحرك حميد هذا الفتى الذي تركناه واقفاً

ومشى في شارع السمائل ، شاقاً طريقاً صعباً بين جموع الآدميين . كان يسائل نفسه « هل هؤلاء هم التجار ، هؤلاء الرجال المحتشدون في المقاهي يلقطون سبجهم ويراجعون أوراقهم ولا يتسمون في وجه أحد ، حتى التحية عندهم تبيد وقت . أنفاسهم الحارة تعلو في الجو ثم تعيدها إليهم المراوح الكهربائية في السقف فلا يحسون للهواء طعماً فيزفرون ويتأففون ويفرون وضع سيقانهم . لهم علم راسخ في المضاربات والناورات والتلصص مع أنواع العملات وبلاد الله كلها مع مواردها وانتاجها . كل هذا العلم الغزير يبحث عن الربح الشخصي ويسعى إليه جاهداً . أما المجتمع كمجموعة من أعضاء أسرة يتبادلون بينهم العطف والمودة والتعاون فأمر لم يعد له بنحواطهم خيال ، وهذا ما أدركه حميد .

وقف بين يدي أحد التجار وانتظر وقتاً ليس بالقليل حتى تمكن أن يلقي عليه سؤالاً خافئاً فيه من المذلة ما يؤلم ويشين . سؤالاً يعرفه كل عاقل . فرد عليه التاجر وعلى شفثيه ابتسامة صفراء معتدرة ، انه بحاجة الى كاتب يحسن الضرب على الآلة الكاتبة ويستطيع القيام بالترجمة ومسك الدفاتر وله خبرة في السوق والتجارة .

في لحظات قصار استعرض الفتى معلوماته التي حشدها في مخه في المدرسة . فبدت أمامه معادلات الكيمياء كأنها طلاس من عالم غير عالم الأرض . أين الحوامض والقواعد والأملاح . وأين ذلك الأستاذ النبيه الذي يؤكد أهميتها في الصناعة والمدنية الحاضرة . ونظريات الحركة والقوة

والكثافة ، والرياضيات والجبر والمثلثات ، ليس بين كل هذه العلوم شيء يفيد هذا الرجل الصارم المتكسر الذي يحمي ظهره بكتلة من الفولاذ مكدسة فيها الدنانير .

قال الشاب بتواضع (اني خريج الدراسة الاعدادية لهذا العام ولا أتذكر أنني درست شيئاً من هذا الذي تطلبه مني) لم يجب التاجر ، وفي هذه اللحظة رن جرس التلفون ودار حديث هام خطير عن صفقة توشك أن تفلت من قبضة تاجرنا وتقع في قبضة تاجر آخر منافس . فقامت الدنيا وقعدت ونسجت خيوط المؤامرات ودبرت المناورات وبذلت الأعطيات حتى بدت الأمور عند تاجرنا أحسن حالا وأقوى أملاً . انتظر حميد بضع دقائق ، يأمل أن تنتهي المكالمة فيستطيع أن يقنعه بضرورة عمل شيء ما في سبيله . وان جهله بمطالب التاجر ليس هو مسؤولاً عنه إنما هي مناهج مدرسية رسمية موضوعة بهذا الشكل . فتخرج موقفه وشعر بالخذلان ، وهو ينقل بصره بين سماعه التلفون الملصقة على وجه سمين والأرض الواقف فوقها : فآثر أن ينسحب حتى انه لم يدر كيف تمت عملية الانسحاب كان الارتباك والحجل مع الألم العميق كل ما احتوته نفسه في تلك الساعة .

أراد أن يلوم نفسه ويتهمها بالعجز والضعف . كان يجب أن يظل واقفاً ويحلق بصرامة في وجه التاجر ويلقي عليه دفاعاً منحنماً مقتنعاً حتى يصل الى قرار . أما أن يتسلل هكذا وينهزم فهي بداية فاشلة لحياته العملية المقبلة .

كثيرون وصفوه ببرودة الطبع وقلة الحيلة والصراحة حتى مع الخصوم
وكثيرون نصحوه أن يدخل المعركة خيئاً ذليلاً مراراً واسع الحيلة يلبس
لكل حالة لبوسها حتى يضع الكتف بين فكيه .

وقف في مكانه مطرقاً مفكراً حتى هذه الفرصة الضئيلة افلقت من يده
خرج منذ ساعة واحدة بعد أن دار بينه وبين أمه حديث يشوبه بريق
من الأمل ، وتوقع الاثنان أن تنفرج الكربة هذا اليوم فيفتح الله عليهما
رزقاً كان حبيساً .

تهندم قدر ما أسعفه الظرف ، المهم أن يكون المرء في هذه المناسبات
حليق الوجه لماع الحذاء وخيط الكوي في السروال ظاهر وعلى الكتفين
سترة لها ياقة نظيفة ، فكانت له هذه المظاهر البسيطة .

رددت امه عند الباب سيلا من الأدعية الحارة واستنجدت بالقديسين
وكشفت صدرها الى السماء وابتهت كثيراً حتى غدا وجهها كراهية
مسكينة . فرمقها حميد بنظرات غير مريحة ولكنه لم ينطق بشيء .

والآن وقد فشل مسعاه فما عساه ان يفعل ؟ فكر ان يعود القهقرى الى
المنزل وينشر النبأ بين يدي امه فيزيد في حزنها وحزنه . ولكن هناك
ما يمنعه من العودة انه لا يستطيع ان يدخل غرفته في هذه الساعة من النهار
وقد احتضنتها الشمس من جانب الشرق ، وارسلت في جوفها السنة من
لهيب جهنم . في هذا الجو الخانق وتلك الغرفة التعسة الملقاة في الطابق
الثاني من ذلك المنزل الفسيح المهدم ، الذي كان في عزه ديواناً لأحد

الأسياذ الكبار ثم دالت دولته فاستحال اصطبلا لآدميين يضجون في
فنائها ويصخبون مع اصوات البريمزات المدوية كأنها معمل لصهر الحديد ،
الحزق القذرة معلقة فوق الرؤوس ، والأطفال العراة يزحفون على الأرض
كصغار القطط .

شيء واحد علق بذهنه وجب اليه كثيراً من الآلام ، هناك في المنزل
صبية جميلة عذبة الصوت صبوحة الوجه ، لها قوام رائع فاتن ونظرات
عجبة فيها سذاجة الصبا وخبث العذراء التي تمارس الهوى وتستعد له . لها
كتاب تقرأ فيه و اكبر الظن انها قصة غرام ، فلا شيء يستهويها الا
الحبيب الجميل الذي يحتمل التضحية ويمجرقه الشوق ويذيه الوجد العارم .
هذا ما تقرأه وهي جالسة على كرسياها في الطارمة غارقة في الأحلام ،
ومن تحتها كل مظاهر البؤس والفاقة . حتى البالوعة تبعث (عطرها)
الكريه في الذين يسكنون فوق السطوح . والأم قد جف ثديها وفشلت
كل محاولاتها لاسكات طفلها الباكي .

كثيراً ما ترفع الكتاب عن عينيها وتبعث بهما نظرات فيها ارتخاء
واستجابة كأنها تقول بهما (لم لا نكون حبيبين ؟) ليس بينهما سلام
ولا حديث انما هي نظرات الشوق تراشق في الفضاء الحار فتلهب المشاعر
وتثير الحواس .

مشى الى دار الاستعلامات ودخلها واتجه تواء نحو الخفية ، فأصاب
منها بارداً منعشاً ثم اتخذ له مقعداً تحت احدى المراوح فتبرد بعد حين الحر

الشديد الذي كان يحسه ، تطلع الى الاجسام الكثيرة الملقاة فوق المقاعد
تتراحم على الصحف لتقرأها ولا تألها الا بعد انتظار طويل ، ولا يكون
نوالها الا بشيء كالقنص والاصطياد .

هؤلاء شباب مثله حطوا رحالهم في هذا المكان الغريب ، ليقرأوا
الصحف وليقتلوا الوقت وليتخلصوا من اجرة المقهى ليس ورائهم عمل
ويبدو على الكثير منهم آيات العوز والفقير .

للمكان جمال ونخامة . الجدران نظيفة صقيلة والصور لطيفة جميلة والهواء
بارد منعش ، ليس لأحد من هؤلاء الجالسين بيت له مثل هذا الأثاث ،
لاحظ حميد احد الجالسين قد لبس حذائه بلا جورب وعلى قدمه بقع
سوداء من التراب والعرق وليس على جسمه الا سروال ممزق تحت
قميص قذر . وقد انكب على صحيفة معينة يقرأ في صفحاتها الثامنة ،
و كأنه يلتهم السطور كما يلتهم الجائع طعامه ، ما الخبر ؟

ما هذا الذي يدفع هؤلاء الشباب الى مطالعة الصحف ، ليس جميعها
بل بعضها ، هذا البعض الذي يقود حركة الفكر في البلد ، بحركة موفقة
انتقل حميد الى جوار ذلك الجالس ذى السروال الممزق والقميص القذر
قد ترك حذائه على الارض ومد فوه قدميه المبعثتين بالعرق والطين .
راح يقلب عينيه في الصحيفة التي يقرأها ، فاحس به في الحال وقدر
شعوره وسمح له برفق ان يطالع معه ، كأنه يقول (العلم مباح واريدك ان
تعلم) التفت اليه وابتسم ابتسامة رقيقة مؤدبة كأنهما صديقان وان لم

يتعارفا بعد . ما هذه الشكاوى ؟ وما هذا البؤس .

فرى كلمة تستقي مياه شربها من الجداول الملوثة بالقاذورات ومع ذلك تدعو الاذاعة الناس الى اجتناب المرض والأخذ بأسباب الوقاية ، ومستوصفات كثيرة خالية من الطيب ومن الدواء والطرقا وعرة تملأها الحفر والايوحال والاتربة والمدارس تشكو نقصاً في الملاك ، في كل مكان شكوى من غلاء الاسعار ومن اشتداد وطأة البطالة ومع ذلك تسمع من يحاضر عن اصول طبخ السكباب المشوي وصناعة المربيات والحلويات . واخبار المتسكمين والمهائمين والمشردين بلا مأوى ثم اخبار الجرائم الفظيعة المقرزة ، السطو والقتل والتوقيفات والمحاكمات والسجون ويمتد طويلا هذا السيل من الشجون حتى تأتي اخبار الحفلات والاعراس والمآدب وليالي السمر والاستقبالات والتوديعات والاصطيافات ومباريات الجمال واخبار المصائف واعلانات ملاهي عبدالله والامباسي وهافانا .

قرأ كثيراً حتى احس بالدوار ، واسترق النظر احياناً الى الذي يجلس جواره فوجد وجهه هادئاً رؤيئاً كأنه شيخ جليل عركته التجارب ، فعجب له حميد وفكر في نفسه ، ان هذا الحذاء الذي يلبسه صاحبه كاف ان يجعلني اضحوكة في نظر نفسي والناس وان يمنعني من الظهور في الشوارع ومع ذلك فان صاحبه يبدو مرحاً لطيفاً . واحس بمظم حاجته الى مثل هدوء هذا الجار ورزاقته وجدته .

البطالة ومتاعب الحياة الصغيرة قد أحالته الى مهتاج موتور غاضب سرعان ما سيتغلب عليه اليأس ويصرعه ولا يدخل معركة الا تراهى له الفشل ، ومع ذلك فهو يبدو انظف من جاره واحسن منه مظهرأ . تملل في مكانه وتمنى لو ان هذا الجار يترك الجريدة ويخرج فيتبعه ويتعرف عليه ، وحدث ان التفت هذا اليه وفحصه جيداً بعينه المادئتين فوجده ضجراً تتأفف ويتلفت حوله ولا يقرأ . فسأله في أدب (انك لا تقرأ ؟) فانتهبه حميد الى سؤاله واحس بفرح مفاجيء .

قرأت ما فيه الكفاية - اجاب حميد - وانت الم تمل القراءة الطويلة؟
ترك الجار الجريدة تسقط من بين يديه وابتسم في مرح ابتسامه لطفل معافى وتهياً لنقاش مؤدب لطيف .

انتي اقرأ كثيراً وهذه الصحف التي اطالعها هي جزء يسير من مطالعاتي
واشار الى الصحف اشارة عابرة بيده السمراء النحيله ، ثم استطرذ متسائلاً:
« اليس من العجب ان نطالع في هذا المكان الغريب ؟ »

فاجاب حميد في بداهة :

- هذا مكان لائق ونظيف وملائم للمطالعة .

- اعرف هذا ، ولكن لم لا نطالع صحفأ في بيوتنا ونشترها من

جيوبنا .

اجاب حميد في سخرية : في بيوتنا ؟ تذكر اي بيت يسكن فيه .
ليتك شهدت بيتنا . . . ثم الصحف من جيوبنا نشترها ، وابتسم

حميد ابتسامة عريضة حاول ان يجعل منها جواباً كافياً لما يدور في رأسه
قال الجار بسرعة (هل تخرج ؟)

وفي الحال سحب الأثان من تحتيهما الكرسيين الحديديين واخرجا
ساقيهما من تحت المنضدة . واستغرق الجار في هذه العملية ثانيتين اضافيتين
ريثا يتيسر له خلالها ان ينقل حذاءه المرطب بالعرق وقد فعل هذا بهدوء
اعتيادي تماماً مثل الرجل الأنيق الذي يضع على رأسه قبعة .

كانا في الطريق ، الجار يجر حذاءه جراً ويهز كتفيه هزاً قويا ويبالغ
ان يجعل قامته منتصبه حتى على اولئك المتأيقين الذين يمرون به ، اما
حميد فرغم اناقته النسبية كان يحس انه اقل شأنًا من هذا الجبار الفقير
الذي تبدو عليه الحكمة والوقار ولا يستطيع من يراه الا ان يحترمه
ويتعافل عن مظهره الزري قال يواصل حديثه . كان يجب ايها الأخ
ان نطالع الصحف والكتب في بيوتنا نحن ، في بيتك وفي بيتي ، لانقرأها
في مكان غريب عنا ، وكان يجب ان نشترها وندفع أمانها كي نتعاون مع
الناس الذين يخرجونها لنا . . لا هكذا استجداء وفضلا .

كان صوته عميقاً قوي النبرات مملئاً بالصدق والثقة فيه انفعال لطيف
يزيده حلاوة في اذن صاحبه .

استدار الى حميد وسأله في غير تمهيد - هل تشتغل ؟ اعني هل عندك
عمل ؟ كان حميد الى هذا اليوم يأبي ان يندكر امام انسان انه عاطل وطالما
ادعى انه موظف في شركة كذا ودائرة كذا حتى سكان المنزل لا يدرون

شيئاً عن بطالته فقد تولت امه خلق وظائف وهمية له . اما في هذه اللحظة
وامام رجل صادق وقور مثل هذا الصديق فالادعاء محال . المشاركة
الوجدانية كانت تصل بينها بخيوط دقيقة .

لا عمل لي ايها الأخ - اجاب بلا تخرج - انني عاطل منذ زمن . . .
منذ تخرجت من الثانوية قبل عشرة اشهر . اجاب الصديق :
- ليس هذا امر مستغرب انني عاطل كذلك منذ سنتين ولا أمل لي
في وظيفة .

صاح حميد مندهشاً - لا أمل لك في الوظيفة كيف هذا ؟
فقط الصديق شفقيه مدركاً انه امام شاب لا يفهم كثيراً . ولذا آثر ان
يؤجل هذا الحديث الى لقاء آخر .

كان مسيرهما في شارع غازي وقد قطعاً خلال هذه الفترة مسافة
كبيرة ولم يبد على الصديق اي تغير في مشيته ، الرأس مرفوعة والاكتاف
تهتز هزة عسكرية والخذاء ينسحب على الأرض مثل خف النوم قد امتص
مقداراً كبيراً من العرق ثم فاض فتشربت به قدماه .

سكت الأثنان بضع دقائق ثم قال حميد :
- اننا لم نتعارف بعد . فاستدار صديقه وبدا على وجهه الأسف وقال
في حرارة بالغة :

- اسمي نوري واسكن في باب الشيخ وقد ذكرت لك انني بلا عمل
ونطق بالعبارة الأخيرة وعلى شفقيه ابتسامة مازحة .

وذكر حميد اسمه وانه يسكن في رأس القرية واردف انه بلا عمل
كذلك . قال نوري :

- الحقيقة اني لا اعلق اهمية على التعارف . كل انسان من طبقتي
ونوعيتي يعرفني واعرفه واستطيع التفاهم معه ونحن صديقان حتماً .
... الا ترى هذا صحيحاً ؟

فهز حميد رأسه . وقال صحيح . ولكن التعارف يهيء الفرصة لصداقة
اقوى .

- التعارف موجود في اعماقنا وفي نفوسنا واذهاننا لا يحتاج الى اسماء
ومحلات سكنى ووظائف ... وتصور لو اننا لم نتعارف بهذه الطريقة
التقليدية . ماذا يحدث ؟ الا يجي احدنا الآخر في الطريق ؟ الم نلتقي مرة
اخرى ؟

احتج حميد وقال مدافعاً عن وجهة نظره :

- قد ينسى احدنا الآخر وقد نضطر الى المراسلة في يومها وقد اسأل
عنك أحداً كيف يتيسر لي العثور عليك ؟

هذا صحيح ولكن لا اريد ان نعلق عليه اهمية بقدر اهمية التفاهم
الحقيقي الذي يمكن ان يتم بدون تعارف تقليدي .

- هل تأتي الى دار الاستعلامات للمطالعة ؟ سأل نوري

لم يجب حميد كان يفكر في فتاة المنزل . وبعد لحظة اجاب في حذر :

- احاول ان اكون هناك ... وانت هل ستأتي ؟

- انا هناك في كل صباح لا يمكنني الاستغناء عن الصحف... تصور في الليل افكر فيها واسأل نفسي ما افتتاحية الغد؟ عن اي موضوع ستكون؟

انتي مهتم جداً واريد ان اعرف كل شيء . . . انك تعلم اننا فقراء معوزين ولكن يجب ان نتسلح بالعلم وضم قبضته بقوة . ان الجهلاء سيقون وراءنا ونحن نتقدم . سأل في حرارة :

- هل انت مثلي ايها الصديق؟ هل لك رغبة في التعلم؟

قال حميد في أسف وقد تذكر ما لقيه في الصباح مع التاجر

- اتعلم! مللت كل شيء المدرسة لم تزودني باي علم يفيدني . وحكى له حكاية الصباح باختصار . وختمها بهذه العبارة انك ترى ان جهودي في المدرسة كلها عبث

هذه ناحية ثانية لمس فيها نوري جهل صديقه . فأكد له في عزم قائلاً انا لا اقصد المعلومات الهزيلة في المدارس العلم شيء اثن من معلومات جامدة يجب ان نتعلم من نحن والى اين سائرون ... ان هذا التاجر الذي احزنك في الصباح وردك خائباً هو الذي يملى ارادته عليك وهو الذي يريد ان يضعك كما يشاء ، هو يضع المقاييس . ان نحن تعلمنا جيداً ادر كنا نقاهة هذا التاجر وسواه من الناس وادر كنا ان العامل الذي يضع مجاري المياه القدرة في اعماق الأرض هو خير منه .
شعر حميد بالارتباك ، ان طلاقة صديقه وقوة حجته وسموه في سهولة

فوق تفكيره جعله يستضعف نفسه ويزيد من احترامه . وكاننا أحس
نوري بشعور صاحبه فاردف في مودة واحترام . اننا نتعاون على حل
مشاكلنا ليس الا وقد نلتقي في فترات اخرى .

كان حميد قد بلغ النقطة التي يجب ان يفترق عندها عن صديقه فوقف
ببطء وقال اسفأ - هنا نفترق وغداً سأكون في دار الاستعلامات .
كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ، فكر حميد ان الشمس قد
زابت غرفته . كان يشعر بالجوع والعطش .

ان امه المسكينة ستظن ان وليدها العزيز المجتهد الذي تخرج من
الثانوية قد وجد عملاً تقنات به .

مشى نحو المنزل فلما دخل وجد الفتاة اللعوب المنعاج ذات الكتاب
تواصل مطالعاتها وقد استبد بها شوق فاضح . رفعت عينها عن الكتاب
ونظرته نظرة مولهه صمد لها بكل قوته ، قال في نفسه .

- انك ماجنة عابثة ولكنني سأصلحك كما ان صديق اليوم سيعمل
على اصلاحه . يجب ان نكون جميعاً صالحين .

طيب بالمجان

تقع عيون غلمان محللتنا وهم يلعبون ويمرحون على شاب كسيح هزيل ضامر يقعد على عتبة احد المنازل من الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ومن فرط ما ألفوه واعتادوه حتى لم يعد يثيرهم منظره واعتبروه كشيء ثابت طبيعي كائن في هذا المكان من الطريق مثل اعمدة الكهرباء وصندوق البريد .

كنت اعرفه واشفق عليه ليس لأنه كسيحاً فقيراً معلماً فحسب ، بل لأنه ضحية وهم كبير يأبى الايحسب وهمه حقيقة واقعة ويصر اصحابه على تأكيد وهمه وتحمييه له . وأمله في الدنيا هو ان يشفى يوماً من عاهته ويجد عملاً سهلاً ويتزوج باحدى الفتيات الجميلات اللاتي يمررن به في كل ساعة هازئات عابثات . فتلقي كل منهن نظرة سريعة خاطفة عليه فيحسبها كأنها تيار كهربائي يخترق صدره فيتملعل ويتأوه ولا يدري احد

هل هو يتأوه حزناً وكمداً وبأساً أم يتأوه تظرفاً وتقرلاً واستخفافاً .
 وكان يؤله كثيراً أن يجد النساء يمررن به غير محجبات قد اطلقن
 نظراتهن عليه وكشفن عن اسنانهن وثيابهن دون تحفظ وتخرج عكس
 ما يفعلن مع الرجال فتأخذنه موجة من الهم فيتساءل مع نفسه ما السبب ؟
 فيجد الجواب حاضراً . أن انساناً كسيحاً مهاناً ملقى على عتبة المنزل
 كلاساخ المزبلة لا شفاعة له فيصرف ساعات طويلة في حزن وبأس
 وتفكير حتى تمر به «هيفاء» الشابة الجميلة السافرة ابنة مدير المدرسة بتسم في
 وجهه وتحية تحية حارة وتسأله عن حاله فيتهلل وجهه باقتسامه عريضة
 ويتنفس عميقاً وعندما يقع هذا المشهد يلتفت اليه الغلمان ضاحكين متندرين
 فلا يلتفت اليهم احد ولا يعيرهم اذناً ولا عيناً .

كان من عادتي ان أحياه في الصباح عندما اخرج الى عملي واحياه
 في المساء عندما اعود الى البيت فيسر بي غاية السرور . ويحزنه كثيراً
 ان يجد بعض شباب المحلة لا يسلون عليه ولا يحيونه بتحية رغم انه
 يستقبلهم بنظراته من اقصى الطريق ويلاحقهم باصرار بعيونه ويحرق
 طويلاً في وجوههم ويأمل ان تفتح شفاههم بتحية ولكنه يخيب في
 نهاية الأمر فيهمهم بضجر ويحرك ساقه تلافياً للفشل .

* * *

كان المنزل الذي يقعد عند عتبه هو منزل اخيه محمود، ومحمود هذا
 عامل في احد المعامل يتقاضى راتباً ضئيلاً لا يكاد يكفيه ويكفي زوجته

واولاده الثلاثة وفوق ذلك فقد تحمل ابواء اخيه احمد ، فيشعر أحمد من جانبه انه عالة ثقيلة مبهظة على مائدة اخيه ولكن ما عساه ان يصنع انه كسيح معتل الجسم لا يقوى على السير الا بعض خطوات عرجاء تكده كدأ . أنه يعلم ان أخاه فقير يعاني مرارة العيش ويتشكى كثيراً من مرارة الأحوال السيئة المرهقة التي تحيط به فيزيد هذا في عذاب احمد واستيائه من نفسه واشتمزازه من حياته فلا يدري ماذا يفعل ، يتمنى ان لا تكون له معدة ولا يشعر بحاجة الى الغذاء لكيما يشارك الاطفال غذاءهم ويثقل على الزوجة ويثير شكوى اخيه ولكن حالما ينتصف النهار يشعر كأن ناقوساً ضخماً يدق في معدته وامعائه يطلب الغذاء ويلجح في الطاب . فيتململ ويتحسر ويرنو بعينه الى داخل المنزل يتسمع قرقرة الصحون ايداناً بالغذاء فتشعر به زوجة اخيه فتتعمد ان تطيل انتظاره وتقتل شهيته حتى تشبع اولادها وتشبع نفسها فتقدم له ماتبقى من الفضلات والنفايات مع رغيف يابس سميك من الخبز فيقبل على غذائه يأكله بحنفة وسرعة محاولاً ان يخفيه عن عيون الغلمان والاصحاب لئلا يشمتوا به ويشعروا بمكاته الوضيعة في المنزل فينتهي سريعاً ويبعد الصحن من أمامه ويتصنع الهدوء والراحة كأنه قد التهم كبشاً سميناً .

كنت اخرج من المنزل احياناً بعد العشاء فأمر باحمد واحيه بتحية
ثالثة فيسر كثيراً ويحرك نفسه على العتبة دلالة الترحاب والاحترام
فأجاذبه حديثاً ظريفاً متمعاً حول حبيبته «هيفاء» ابنة مدير المدرسة واسأله

عما اذا كانت قد حيته هذا اليوم فيجيني بالتأكد .

- أجل حيتي أجمل تحية وابتسمت في وجهي وسألني عن صحي كنت أعرف مايجول بخاطره ولذا كان يتفق معي في كل ما أقول فتبتهدج نفسه . فأسأله ما يمنعه ألا يتزوج « هيفاء » طالما هي تحبه وتحترمه فيتطلع في وجهي محاولاً أن يفرق بين جدي وهزلي فيجديني جاداً غير موارب فيتشجع ويقول أتمنى أن أتزوجها ولكن لا عمل لي ولا مال وقدمي كسيحتين مفلوجتين فأقول له مواسياً لا بأس عليك يا أحمد سأتوسط لك في إيجاد عمل كحارس في العمل وتستطيع أن تسترد ارثك من أخيك محمود .
عشرون ديناراً لا بأس بها قد تفيدك في الزواج وفوق هذا فان « هيفاء » ستخرج هذا العام من المدرسة وستكون معلمة لها راتب في نهاية الشهر فستطيعان أن تعيشا معاً برفاهية وسعادة . فيهن أحمد رأسه ويقول ببساطة .

طالما الحب قائم فكل العقبات سهلة هينة . وأفاجئه بهذا السؤال

- ألا تحبك هيفاء ؟

- فيجيب بسرعة وحدة وصراحة

- بكل تأكيد . بيننا غرام ملتصق منذ أعوام لولاها لما سكنت في هذا المنزل ولا بقيت على قيد الحياة إنما حياتي وهدايتي ومنار طريقي وهي تحبني وتخلص لي ولا تستطيع أن تمر الا من هذا الطريق رغم ان الطرق عديدة للوصول الى منزلها . أليس هذا دليلاً على حبها لي واهتمامها بي؟

مسكين أحمد يصدق كل شيء ويشك في كل شيء . يصدق أموراً كثيرة ويشك في أمور كثيرة . ان هيفاء تحبه وتخلص له وتتمنى الزواج منه وهو يحبها ويهيم في هواها ويتمنى لمسها ومحادثتها وينتظر أوبتها إلى المنزل بقلب واجف وعين متلهفة . واذا ما طلعت عليه من أقصى الطريق تهلل وجهه بابتسامة عريضة ، وخفق قلبه بشدة وركزت عيناه على كل موضع من مواضع وجهها ولباسها وجسمها . كم كانت تبدو جميلة فتاة في عين الشاب الكسيح حتى ليخيل اليه أنه يرتفع الى السماء ويحيا لحظات خاطفة في فردوس السعادة . واذا ما لقت عليه تحيتها وصل في حبه الى ذرى الخيال فيتمنى لو يمزق صدره ويحشر فيه هذا الجسد الجميل المنسق ويحفظ به الى الأبد .

ولكنها تمر وتبتعد ويختفي خيالها وظلها . نعم ان له لدى أخيه عشرون ديناراً ورثها عن أمه في السنة الماضية فيستطيع أن يستعيدها منه إذا جد الجد وعزم على أمر هام . ويستطيع كذلك أن يجد لنفسه عملاً سهلاً هيناً كبواب أو حارس أو صاحب دكان صغير . وان هيفاء ستخرج هذا العام وتكون معلمة . أن حياتها الزوجية ممكنة من الناحية المادية ولا غبار عليها . وفي ساعات اخرى تغلب عليه الكآبة ويشتد به الحنين وتطبق عليه الآلام فيأخذ بيده معولاً ثقيلاً ويهدم كل هذه الآمال الخرقاء حتى يكاد يصرخ من فرط اليأس والتحسر فيناجي نفسه .

انا كسيح مريض وزوجة اخي تطعمني من بقايا طعام اولادها

وتعمن في اذلالتي وتعديبي ونساء الحمي يسخرن مني ويبرزن صدورهن في وجهي بلا تحفظ ولا تخرج كأني طفل مشرد حقير وان العشرين ديناراً سيأخذها مني جزاء ما اطعمني وكساني وآواني في منزله . هيفاء تجاملني فقط وتعطف علي وان مسألة الزواج شيء مستبعد ومستحيل كيف يقبل أخوها وأبوها أن يتزوجها كسيح مريض مشوه وحقير اتني أحلم وأسلي نفسي بالأكاذيب .

* * *

حدث يوماً ان مرت بمنزل أحمد فلم أجده عند العتبة فاستغربت كثيراً فسألت عنه أحد الفلمان فقال ان أحمد مريض وقد ذهب في هذا المساء الى الطيب المجاني . فخرنت كثيراً ودهشت ألا تكفي همومه وآلامه حتى يمرض كذلك .

وفي اليوم التالي وجدته في مكانه فأقبلت عليه أسأله عن علته فأذهلني شحوب وجهه وتهافت جسده وضعف نظراته فقال لي في مسكنة ويأس .
- لقد مرضت منذ بضعة ايام ولا ادري ما اصابني

فسألت عن الطيب الذي يعالجه . فعلت انه الدكتور سعدي الذي يعالج مرضاه بالمجان نهار الجمعة

فسألت هل اهمم الدكتور بفحصك وعلاجك ؟
فتأوه وقال في ضيق :

منحني لحظة واحدة من وقته ، كان عنده جمهور كبير من المرضى الفقراء

استطعت ان اقول له اربع كلمات فقط (دكتور الم في المعدة) فالتقط قلته
وكتب شيئاً على ورقة صغيرة ثم وضع في رأسها اسمي . اردت ان اقول
شيئاً آخر لازيد علمه فلم يتيسر لي وجدت ورائي مريضاً آخر قد دخل
ومريضاً ثالثاً قد دس رأسه في الباب فتراجعت مرغماً وانا امسك
بالورقة لا ادري هل اكتشف الدكتور مرضي بهذه السرعة حقيقة ام
خمنه تخميناً .

صمت لحظة طويلة فسألته الاتجد نفسك احسن يا احمد ؟

فأمعن في النظر فدهشت لنظراته المتعبة اليائسة وتحوله السريع من
شاب ظريف فكه ساذج الى رجل حازم مفكر جاد قال بهدوء و ناة :

- انتي ذاهب ، الموت خير لي يا عزيزي

فحاولت ان ارفه عنه بكل قوتي لازيل عن نفسه هذا الشعور الرهيب
فقلت له بعطف ورقة :

- وهيفاء يا احمد هل نسيته ؟ فدمعت عيناه وجعل رأسه يسقط الى

صدره وسمعته يتمتم بصوت منقطع خافت :

- هيفاء ! لقد خسرتها يا عزيزي خسرتها الى الأبد انها مخطوبة الى

ابن عمها !

- كيف علمت ذلك يا احمد ؟

فرفع رأسه وحلق في كانت عيناه مغمضتين بالدمع ووجهه شاحب

كوجوه الموتى فرثيت لحاله واشفقت عليه غاية الاشفاق

قال : وجدها هذا الصباح مع خطيبها !

- ما شكل خطيبها ؟

- شكله ؟ خير الف مرة من شكلي ، شاب جميل رشيق يمشي بقدمين قويتين ويكتسي بحلة انيقة ثمينة ، قد تأبطها وتأبطته . فلا سلام ولا تحية ولا حتى نظرة او ابتسامة . وجدها تهمس في اذن خطيبها . فالتفت نحوي ورمقتي بنظرة مشفقة ساخرة .

ساد بيننا صمت عميق ، فتطلعت الى وجهه فوجدت راية الموت الرهبة ترفرف على وجنتيه الناتئين فتركته وانصرفت .

وفي اليوم التالي لم اجد احمد عند العتبة فسألت عنه فقيل لي انه مريض جداً وقد اوى الى فراشه . فاشتقت ان اره . اتيت اليه في المساء وجلست الى جانبه على السرير الحشن سألته عن حاله ، فكان يجيب بجهد بالغ : همست في اذنه مداعباً تشجع يا احمد قليلا ان مكانتك في قلب هيفاء لم يمسه احد ... انت محبوبها الأول ، اجابني تقطع :
- لا يا عزيزي لن تعد لي هيفاء بعد اليوم ... انك لا تدري اواه

اواه ... لا تدري ، وكاد يغمى عليه من فرط التأثر ، صحت به :

- ما الذي حدث اي شي هذا لا ادريه ؟

- الليلة يا عزيزي الليلة ... تتزوج هيفاء وتذهب مني الى الأبد يا لتعاستي وبا لأحزاني وصار يبكي كالأطفال ، واسيته وخفت عنه جهد امكاني .

وقضيت معه فترة طويلة من المساء ، حتى وجدته احسن حالا فتركته
وانصرفت ، ما كدت اودعه واصل الى عتبة المنزل حتى سمعت صراخاً
وولولة ، امتزجت بانغام الموسيقى تعزف من مكان قريب ، مع تهاليل
النساء ، مات احمد وتزوجت هيفاء .



مرآة الناس

في نفسي ينبوع دافق من المرارة فكل ما يبدو امامى اراه
 مسربلا بالكآبة ملطخاً بالاوحال حتى المسرات التافهة الباهتة التي يندفع
 اليها الناس . لقد امضيت . ساء هذا اليوم في مقهى علوان واستعرضت
 الصورة نفسها التي ترسم في كل ليلة . حقاً اننا نعيش في عالم حزين
 مضجر قد ملأته روح متمردة طاغية ذات قسوة وفتك تدور على الناس
 دوران الرحي الثقيلة المزعجة . لقد اقبل الشحاذ عيسى هذا الذي لا يكاد
 يجد لقمة يلهي بها اسنانه فيثقل امعاه بالخمير ويحشد رأسه بالاوهام
 والخيالات . اقبل علي بيده المرتمشة وقدميه الخافيتين ووجهه المغبر الحزين
 يطلب منى شيئاً من النقود . لقد كانت حاجته شديداً الى الخمر
 فاستطاع بسناده وجهه ان يطبع ارووع تعبير على وجهه المتقلص البارد
 تعبير رجل ساقط متدهور منحل فقد كل امل وكل عزة وكل حائل يحول بينه

وبين جيوب الناس . لم اعطه شيئاً بل صرفته عنى بفظاظه ليست من طباعي ولا كنت يوماً اريدها لأحد . فلم يكثر ولم يحس انى اطرده وأزجره بل جمد في مكانه وقال في برودة هادئة :

- اذن اعطى سيجارة . فأشفت عليه وناولته ما اراد فاشعل السجارة ولوى عنقه وما كاد يبتعد عنى بضع خطوات حتى مد يده المرتعشة الى جيب سترته واخرج قنينة حمراء راح يعب منها . ثم عمد الى سيجارته وحشرها حشراً قوياً بين شفثيه كأنه يريد ان ينفذ كل دخانها الى صدره .

وما ان اشرفت الساعة على العاشرة حتى طلع علينا شاب حسن الصورة قدر اللبس عليه اثواب لا تنبئ الا عن فاقة ، يمشى مشية متعبة مكدودة كأنه اقبل من سفر بعيد . تقدم الى ركن منعزل من المقهى وتناول مصطبة كبيرة اسندها الى الجدار ثم راح يخلع ثيابه الرثة الكثيرة . لقد وضع فوق بدنه كل معدات الشتاء ... القمصان والبلوزات والزخات . مختلفة الالوان جمعها كلها في كومة كبيرة وضعها في رأس المصطبة ليتخذها وسادة وليأمن عليها من يد عابثة . ثم احضر من مكان آخر قطعتين من الاغطية الصوفية نشرهما فوق المصطبة وتمدد تحتها يريد ان ينام . انه يمضى ليلته في هذا المكان المزعج القدر المليء برائحة الدخان ونفايات السجائر .

كان الراديو يقوم بوظيفته . قد اطلق كل صفاراته وحنجره في مساء

الاربعاء . اغان كثيرة لايعرف من وضعها لاول مرة ومن اطلق عقابها في هذا الوجود ولا المناسبة التي وضعت فيها . حقاننا نعيش في عصر سحيق من التاريخ عصر مضى وانتهى وفقد كل مبررات وجوده ولم تعد له اي وشيجة مع هذا العصر المتحرك .

وبعد قليل حضر الى المقهى اربعة رجال . احدهم «افندي» والآخر جراويوة « واثنان بين بين . تقدموا الى ركن آخر من المقهى وحطوا رحالهم امام مائدة مستديرة ملساء . فاقبل رب المقهى ، هذا الرجل الذي يخل عليه الوضع ان يصفه بالوضاعة ، هذا الذي تسمنه بمن المجتمع وتغذيه بالعسل والحليب . احضر لهم (دسنة) من اوراق اللعب الفاها بين ايديهم كما يلقى الاب الحنون اللعب لاولاده فابتسموا في وجهه وشكروه شكراً حاراً . فدارت الاوراق رائحة غادية تنساب بين الاصابع انسياب الماء الرقاق الصافي رشيقة انيقة ناعمة ترمع حظاً وتهبط بأخر والقوم بين صفرة وحمرة .. بين شبهة وأنه . بين ابتسامه وكآبة .. بين مد وجزر ، والدراهم بين ايديهم كسبايا الحرب مقهورة مغاوبة لاتدري من مالها ومن معطيها ، تقف هنا وتمتل هناك ، تتقدم الى هنا وتراجع الى هناك ثم تعود وتعود الى المالا نهاية . ترى من احوج من هؤلاء الى اموالهم . لقد صرفوا سحابة نهارهم في اعمال متعبة مرهقة فاستحقوا هذه الاجور القليلة فاجتمعوا ليقاسروا بها . لا بد لكل منهم عائلة ولكل منهم زوجات وابناء واخوة قد أصابتهم الحياة

بالكثير من متاعها ومشاكلها يسمعون الى الخبز والخبز ينأى عنهم ويجدون وراء المسكن وأبى المسكن الا ان فيض بأهله .

بين آونة واخرى يتقدم علوان فيستلم ضربته وما يزال يستلم ويستلم حتى يكون هو الراجح الاول فيخرج الاربعة الى الطريق خاوين مفلسين . هناك في المقهى وجوه كثيرة شاحبة معروفة تطل منها عيون حزينة باردة خاية قائمة فوق هياكل ناحلة ضاوية قد انعقدت فوق رؤوسهم سحب كثيفة من الدخان . يريدون ان يهربوا من حياتهم ولو استطاعوا لهربوا حتى من اجسادهم .

* * *

سأترك هذه المقهى بعد قليل وسأستقبل في الغد صديقي نوري الذي اعتاد ان يجلس في مقهى (البرازيل) ويدخن السيجار ويتعشى بالحلويات ويحتسى اكواب الشاي مع الحليب والكافو ، ويتحدث عن رباطه وحذائه ومكويه وبائع قصصانه واربطته بحماسة المخترع الذي يتحدث عن تجاربه واستكشافاته .

لقد اشتبك أياماً في معركة مع نفسه . هناك في حياته المضطربة الصاخبة امرأة جميلة شابة لها زوج فقير عاقل . يريد ان يحسن الى هذه المرأة ويتقرب اليها ويخطب ودها وينتشلها من البؤس الفارقة فيه ويجعل منها امرأة انيقة مهذبة . ولكنها لاتعجبه كما يلتقي فهي نحيفة العود شاحبة الوجنتين علية الجسد . وكل صفاتها انها بيضاء اللون فارعة الطول

عريضه الوسط . يستشيرني احياناً هل الأحسن ان اتركها وانصرف الى غيرها ام اتعدها بالعناية والعلاج فاصطحبها الى طيب واشتري لها أدوية منعشة واجهزها بأبر البنسلين كي تسمن قليلاً وتحمر وجنتاها وتتلو ابتسامتها ويستدير وجهها انه يفكر فيها كما يفكر الرجل عندما يشتري بقرة . سأذهب اليه في الغد وأعلمي برويته كي ازيد من مرارة نفسي



في القرية !..

على ربوة غير بعيدة عن الأنظار ارتفعت فوق أرض القبور المقيمة بعضها سليم قائم بحجارته وتوابه رغم الزمن الطويل وبمضها مفتت زائل قد ذهب توابه وتبعثرت حجارته وأخى هامته للارض فاستوى واياها ، كثير منها يعلو بعلو الربوة وينحدر بانحدارها ويتجه صوب الشرق والغرب حتى لتكاد نحسب الأرض كأنها قبر واحد احتوى عدداً هائلاً من الخلق .

كانت عجوزاً واحدة قد اقتعدت حجراً كبيراً تنتحب بصوت خافت ضعيف وتقول شيئاً حزيناً مؤسفاً بلغة غير عربية أن ابنها أو أخاها أو شيئاً من هذا . نال غصص الدنيا ومتاعها ثم سكن هنا سكنته الأخيرة .

وكلما أعيها النحيب وأتعبها الرثاء هجمت على علة سيكائرها النحاسية
فاخذت سيكارة طويلة ذات عقب وأشعلتها في فمها .

البؤس شيء مألوف في كل مكان . كثير منه في الشمال وكثير منه في
الجنوب !

كانت أصوات مزعجة منبعثة من الحارات الضيقة المجاورة ، صوت
طبل كبير يقرعه شاب بلدي يسير وراء لوحة السينما وامامه رجل مكتمل
ينفخ بزماره قد انتفخ خداه وزاغت عيناه وارتفع الدم الى وجهه ، يقطع
هذا الموكب الازقة يدخل واحداً ويخرج من الآخر واللوحه تدور في
الفضاء عليها رجل أسود شاهراً سيفه يقفز من فوق حصان ، والأولاد
قد خرجوا مهالين مبتهجين بهذا الشهيد المؤنس يسرون امام اللوحه وورائها .
وقارع الطبل يوالي ضرباته الشداد ولا يتسم في وجه أحد .

هي السينما الوحيدة في القرية مقاعدها كقاعد المقهى من الدرجة الثالثة
ولا يعرض فيها فيلم تتناسب أهميته مع تلميذ في الصف الأول الابتدائي .
اما النساء فقد أخرجن رؤوسهن من الأبواب الواطئة القديمة . حتى
لكنت ترى احداهن شابة في غير جمال ترضع طفلاً هزبلاً قد جثم على
صدرها جثوم القملة في الرأس يبدو من محياها انها انسانة تعيش خارج
معسكر العالم قد قذفتها الدنيا هنا ثم ستنتشلها من هنا وتذهب بها الى
الربوة الابدية .

يجب أن اذكر ان في أعلى الربوة قبراً كبيراً فخماً عليه نقوش وألوان

وأصباغ تظلمه مظلة كبيرة تسندها الى الأرض اعواد من الحديد، انه قبر انسان غني لا يريد أن يذهب عن هذا العالم الا بشهادة تشهد على عناه فكان له ما كان وكان للآخرين ما كان !

ليس هذا كل شيء . انما هناك صاحب المقهى رجل بطين ، أغبر الوجه ماكر النظرات أخذ طريقه تجاه الربوة ، يدفع بطنه امامه ويتدحرج على الطريق كالكرة .

ما الخبر ؟

انه لخبير سار ، ان هناك من تمشى امامه وتتجه هي الأخرى صوب الربوة ، امرأة هيفاء فارعة قد احتواها سواد جميل يعلو فوق رأسها وينساب بين قدميها .

في هذه القرية الوادعة الساكنة ذات البؤس العظيم امرأة غانية لامعة لها كل هذا الطول وكل هذا الخذاء المزوق الفاخر ليجذب ورائها جيشاً من الرجال . ولكن الرجل كان وحده يثبت خطواته على الأرض ويقفو أثر الحساء .

الى أين ؟

الى جوف المقبرة بين الحجارة المهذمة وأكوام التراب . هناك الملتقى لم تكن مقهاه خالية من الزبائن بل هي محتشدة احتشاد النمل يقوم بالخدمة فيها رجال يعملون باخلاص وأمانة ويشهدون ربهم على اخلاصهم وأمانتهم ، يجمعون للرجل البطين شيئاً كثيراً ينفقه على مسرته ولطوه .

وقبل ان تغيب الشمس ، كان كل شيء قد انتهى بسلام ، عاد
الرجل البطين الى مقهاه منتفحاً باسماً بعد ان نال كثيراً من المتعة بين
القبور . ولا يدري انسان هل سمع العجوز بنحيبها وولولتها ام لم يسمع
شيئاً ، انما الذي يدريه كل انسان ان في حياتنا مقداراً طيباً عزيزاً من
الفوضى والفساد .

﴿ انتهى ﴾

الفهرست

| | صفحة |
|--------------------------------------|------|
| مقدمة بقلم الدكتور صلاح الدين الناهي | — ٣ |
| شجار | — ٥ |
| المأمور العجوز | — ٣٢ |
| على حقيقته | — ٤٦ |
| صديقان | — ٥٢ |
| طبيب بالمجان | — ٦٦ |
| مرآة الناس | — ٧٥ |
| في القرية | — ٨٠ |
| الفهرست | — ٨٤ |

www.alkottob.com

التمر ٦٠ فلساً

www.alkottob.com